كتاب نادي الكرمة للقراءة ١٩٩٨

مكتبة نوبل

جوزيه ساراماغو

العمى

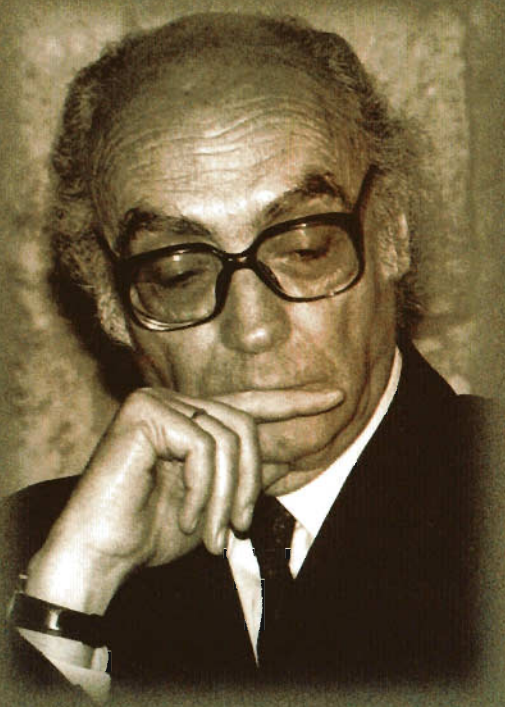

ترجمة: محمد حبيب

كتاب نادي الرمل للقراءة

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : جوزيه ساراماغو
عنوان الكتاب : العمى
المترجم : محمد حبيب
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٢
الحقوق محفوظة

Author:José Saramago
Title:TODOS OS NOMAS
Translator:Mouhamed Habeb
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2002
Copyright © José Saramago & Editorial caminho,SA Lisboa,1997.

By arrangment with Dr.Ray-Gude Mertin,Literarische Agenture, Bad Homburg, Germany

The Portuguese Institute for Book and Libraries supported this book.

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
البريد الالكتروني : E - mail : al - madahouse @ net.sy

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩٩٨
مكتبة نوبل

جوزيه ساراماغو

العمى

ترجمة

محمد حبيب

كتاب نادي الرمث للقراءة

الشارة الافتتاحية في كل
فصل من فصول الرواية
مأخوذة من شعار اتحاد
العميان الكرواتي.

www.9ofy.com

إهداء المؤلف:

إلى ابنتي فيولانتي

إهداء المترجم

إلى
الشامخة كالحْورِ
القويّة كالسنديان
العطرة كالنارنج
النقيّة كالياسمين
العميقة كالسماء
الوديعة كغزالة
الغيور كلبوة
الهادرة كالموج
والرقيقة كالماء
حبيبتي...
نوال

www.9ofy.com

إذا كنت تستطيع أن ترى ، فانظر

إذا كنت تستطيع أن تنظر ، فراقب

من كتاب المواعظ

أضاءت الشارة الكهرمانية. أسرعت اثنتان من السيارات التي في المقدمة قبل أن تضيء الشارة الحمراء. أضاءت الشارة الخضراء عند ممر المشاة وبدأ المارة الذين كانوا ينتظرونها يعبرون الشارع فوق الخطوط البيضاء المرسومة فوق الإسفلت الأسود. تلك الخطوط التي تشبه حمار الوحش الى حدٍ كبير، وعلى أيَّة حال هكذا كانت تسمى. أبقى السائقون أقدامهم المتعجلة فوق "الدبرياج" تاركين سياراتهم على أهبة الاستعداد، تتقدم وتتراجع كأحصنة تشعر بالسوط الذي يوشك أن يسوطها. عَبَر المارّة جميعا إلا أن الشارة الخضراء لانطلاق السيارات ستتأخر بضع ثوان.. ويتضاعف هذا التأخير رغم عدم أهميته الواضحة، كما يؤكد البعض، بفعل آلاف شارات المرور الموجودة في شوارع المدينة، وبفعل تغير ألوانها الثلاثة المتعاقبة الذي يخلق واحداً من أكثر أسباب ازدحام المرور جدّيةً، أو الاختناقات المرورية، إذا استخدمنا التعبير السائد.

www.9ofy.com

أضاءت الشارة الخضراء أخيراً، فانطلقت السيارات بسرعة، تبيّن فيما بعد أنها ليست جميعا على القدر نفسه من السرعة، فالسيارة الأمامية في منتصف المضمار لاتزال واقفةً. لابد أن هناك عطلاً ميكانيكياً.. عطلاً في دواسة البنزين، أو مبدّل السرعة.. عطلاً في الأماتسورات*، أو الكوابح.. عطلاً في الدارة الكهربائية، هذا إن لم يكن وقودها قد نفد، وليست هذه المرة الأولى التي يحدث فيها أمركهذا. رأت مجموعة المارّة الجدد الذين احتشدوا عند ممر المشاة سائق السيارة المتوقفة يلوّح بيديه من خلف زجاج السيارة الأمامي، بينما السيارات المتوقفة خلف سيارته تطلق العنان لأبواقها الغاضبة. خرج بعض السائقين من سياراتهم وقد استعدوا لدفع السيارة الجانحة إلى مكان لا تعوق فيه حركة المرور. خبطوا غاضبين على زجاج نوافذها المغلقة، والرجل في داخل السيارة يتلفت برأسه ذات اليمين وذات الشمال. من الواضح أنه كان يصرخ بشيء ما، ومن حركة شفتيه بدا أنه يكرّر بضع كلمات، ثلاث كلمات تحديداً، أنا أعمى**، كما اتضح لاحقا عندما نجح شخص ما بفتح باب السيارة أخيراً.

مَنْ سيصدّق ذلك؟! فبالاعتماد على المشاهدة فقط، إن عيني الرجل سليمتان. القدحيتان رائعتان، منيرتان، الصلبتان بيضاوان، مدمّجتان كالبورسلين. بيد أن عينيه المفتوحتين على اتساعهما، وتجاعيد وجهه، وحاجبيه اللذين قطّبا فجأة، هذا كله يشير إلى أنه قد خبَّله الكرب، كما يستطيع أي امرئ أن يرى. بحركة سريعة، اختفى ماكان مرئياً خلف

* النوابض التي تحمل هيكل العربة فوق محاور العجلات .

** I am blind

قبضتي الرجل المغلقتين بإحكام، وكأنه لايزال يحاول أن يستعيد في ذهنه آخر صورة كانت أمام ناظريه، ضوءاً أحمر دائريا في شارة المرور. أنا أعمى، أنا أعمى، كان يردد يائساً وهم يساعدونه على الخروج من السيارة والدموع الطافرة من عينيه اللتين يدّعي مواتهما جعلتهما تظهران أكثر تألقاً. تحدث أمورٌ كهذه، أزمة وتمرّ، يحدث ذلك لأسباب عصبية أحيانا، قالت امرأة. تغيّرت أضواءُ الشارة ثانيةً، تجمّع بعض المارّة الفضوليين حول سابقيهم، احتجّ السائقون الذين في المؤخرة، ولم يعرفوا ماذا يجري، على ما اعتقدوه حادثاً عادياً، كتحطّم ضوء أمامي، انبعاج جنب السيارة.. لاشيء يسوّغ كل هذا الهيجان، اطلبوا الشرطة، صاحوا، وأخرجوا هذا الخردة من الطريق. توسل الأعمى، أرجوكم، ليأخذني أحدكم إلى بيتي. ارتأت المرأة التي اعتقدت أن عماه مسألة أعصابٍ أنه من الضروري استدعاء سيارة إسعاف لنقل الرجل المسكين إلى المشفى، إلا أن الأعمى رفض سماع الاقتراح، لا ضرورة لذلك. إن كل ما يريده هو أن يرافقه أحد ما إلى مدخل البناية التي يقطن فيها. إنها قريبة جداً، وتلك أعظم خدمة تقدمونها لي. وماذا عن السيارة، سأل شخص ما. أجابه آخر، المفاتيح في السيارة، قدها إلى الرصيف. لا حاجة لذلك، تدخّل صوت ثالث، سأقود السيارة وأرافق هذا الرجل إلى بيته. تعالت همهمات الموافقة. شعر الأعمى بيد تمسك بذراعه، تعال، تعال معي، كان الصوت نفسه يخاطبه. أجلسوه في مقعد السيارة الأمامي، ووضعوا له حزام الأمان. لا أستطيع أن أرى.. لا أستطيع أن أرى، همس والدموع مازالت تنهمر من عينيه. أخبرني أين تقطن، سأله الرجل. وعبر نوافذ السيارة تطلعت وجوه نهمة، تواقة إلى معلومات

إطفائية، رفع الرجل الأعمى يده إلى عينيه وأومأ، لا شيء، يبدو أني قد قطست في ضباب أو سقطت في بحر حليبي. لكن العمى مختلف هما تقول، قال الشخص الآخر، يقولون إن العمى أسود. حسن لكني أرى كلّ شيء أبيض، الأرجح أن تلك المرأة الصغيرة كانت على صواب. قد تكون مسألة أعصاب، فالأعصاب شيء شديد التعقيد. لا أحتاج لتشرح لي عنها، إنها كارثة، نعم كارثة. قل لي، من فضلك، أين تقطن. وأقلع المحرك في اللحظة نفسها. أخبره الأعمى بعنوانه متلعثماً وكأن فقدانه بصره قد أضعف ذاكرته. ثم أضاف، لا أملك الكلمات لأشكرك. فردّ عليه الرجل الآخر لا تفكر في شكري إذن، فاليوم دورك وغداً دوري، إننا لا ندري ما يخبئه الغد لنا. أنت محق.. مَنْ كان يعتقد، عندما غادرت بيتي صباحا، أن شيئاً فظيعاً كهذا سيحدث لي. تحيَّر من أنهما لا يزالان متوقفين في المكان نفسه، فسأل، لماذا لا نتحرك. لأن الشارة حمراء، أجاب الآخر. من الآن فصاعدا لن يُعرف متى تكون الشارة حمراء.

كما قال الأعمى، فقد كان بيته قريباً. غير أن الأرصفة كانت مكتظةً بالعربات، لم يستطيعا إيجاد مكان لصف السيارة فاضطرا للبحث عن مكانٍ في أحد الشوارع الجانبية. وبسبب ضيق الأرصفة هناك لن يتمكن من فتح الباب، بما يكفي ليترجّل عبره، وكي يتجنب مشقّة جرّ نفسه فوق المقعد الى باب السائق، والارتطام بالكوابح وعجلة القيادة، فقد ترجّل الأعمى من السيارة أولاً، قبل أن يصفّها الآخر. وقف وحيداً في منتصف الطريق، يحس الأرض تنزلق من تحت قدميه، حاول أن يخمد الإحساس بالهلع الذي كان يتعاظم داخله. لوّح بيديه أمام

وجهه، بحركة عصبية، وكأنه كان يسبح فيما وصفه ببحر حليبي، كان قد فتح فمه للتو ليطلق صرخة استغاثة عندما شعر في اللحظة الأخيرة بيد تلمس ذراعيه. لطف -إهدأ ها قد عدت إليك. تقدما ببطء شديد، والأعمى يجر قدميه جراً خشية أن يسقط، وهذا ما جعله يتعثر بالرصيف غير المستوي. اصبر، كدنانصل، غمغم الرجل الآخر، وبعد عدّة خطوات سأله، هل في البيت أحد ليهتمّ بك. لا أعرف أجابه الأعمى، فزوجتي لاتزال في عملها، وقد اتفق أني غادرت البيت مبكراً اليوم، فقط كي يصيبني ما أصابني. سترى إنه ليس بالأمر الخطير، فلم أسمع البتة بأحد عَميَ فجأة. تعرف طالما تبجحت أني لا أستخدم نظارة. حسن، ذلك يدعم رأيي. وصلا مدخل البناية التي يقطن فيها، تطلعت اثنتان من الجيران بفضول إلى منظر جارهما يُقاد من ذراعه، لكن لم تفكر إحداهما في أن تسأل، هل تعاني من شيء ما في عينيك. لم يخطر لهما ذلك ولا كان هو قادراً على الرد، نعم، فيهما بحر حليبي، ما أن دخلا البناية حتى قال الأعمى شكراً جزيلاً، آسف لازعاجك، بوسعي أن أكمل وحدي الآن. لا داعي للاعتذار، سأصعد معك الى باب الشقة، لن يهون علي أن أتركك هنا. واجها صعوبة في دخول المصعد الضيق. في أي طابق تسكن. في الثالث، لو تستطيع أن تتخيل مقدار امتناني لك. لا تشكرني، فاليوم دورك. نعم أنت على حق، قد يكون دورك غداً. توقف المصعد، خرجا الى قرص الدرج أمام باب الشقة. أتود أن أساعدك في فتح الباب. شكراً، أعتقد أني قادر على فعل ذلك بنفسي. أخرج من جيبه مجموعة مفاتيح، تحسسها واحدا بعد الآخر من الحافة المسننة، وقال، هذا هو على ما أعتقد. تحسس بأصابع يديه

www.9ofy.com

البشري لثقب المفتاح، وحاول فتح الباب. ليس هذا المفتاح. دعني أرى، سأساعدك، فتح الآخر بفتح الباب في المحاولة الثالثة. عندئذٍ صاح الأعمى نحو الداخل، أنت هنا. لا جواب. أردف، كما كنت أقول لك، لم تعد بعد. مدّ يديه وراح يتلمس طريقه على طول الكوريدور، ثم عاد بحذر. أدار رأسه الى الجهة التي حسب أن الشخص الآخر يقف فيها وقال، كيف بوسعي أن أشكرك. ذلك أقل ما استطعت فعله، قال السامري الطيب، لا داعي لأن تشكرني، وأضاف، أتريد أن أساعدك على الدخول وأمكث برفقتك حتى تصل زوجتك. أثار هذا الحماس ريبة الأعمى فجأة، من الواضح أنه لن يدعو غريبا لدخول بيته، لأنه، في نهاية المطاف، ربما يخطط في اللحظة نفسها للتغلب على الأعمى المسكين الأعزل، ثم يسطو على أي شيء ذي قيمة. لا داعي لذلك، أرجو ألا تنزعج، قال له، أنا بخير، كرّر وهو يغلق الباب ببطء، لا داعي لذلك، لا داعي لذلك.

تنفس الصعداء عندما سمع جلبة هبوط المصعد. وبحركة آلية، ناسياً حالته الآن، رفع غطاء العين الساحرة في الباب ونظر عبرها، بدا كأن هناك جداراً أبيض في الجهة الأخرى. شعر باحتكاك إطار العين المعدني بحاجبه، فرمش جفناه أمام العدسة الصغيرة، بيد أنه لم يستطع أن يرى شيئاً في الخارج. بياض كتيم يغطي كل شيء. عرف أنه موجود في بيته، ميّز رائحته، جوّه، هدوءه، بوسعه معرفة أثاثه وموجوداته بمجرّد تمرير أصابعه عليها بخفّة، لكن في الوقت نفسه بدا كأن هذا كله قد استحال إلى بُعدٍ غريب، من دون اتجاه أو بدايات مرجعية، بلا شمال أوجنوب، فوق، أو تحت. طالما لعب، مثل الناس جميعا، وهو صغير لعبة

الأعمى، وبعد خمس ثوان من إغماضة عينيه توصل إلى نتيجة مفادها أن العمى، بلا شك، بلوى مرعبة، وقد تبقى محتملة نسبياً إذا ما احتفظ الضحية التعس بذاكرة جيّدة، ليس فقط فيما يخص الألوان، إنما أيضا فيما يخص الصور والخطط، الوجوه والأشكال، مفترضا بالطبع أن ذلك الشخص لم يولد أعمى. حتى إنه وصل بتفكيره إلى حد الاعتقاد بأن الظلمة التي يعيشها الأعمى ليست ببساطة أكثر من غياب الضوء، إن ما نسميه عمى هو ببساطة شيء ما يغطي مظهر وكينونة الأشياء، يتركها سليمةً خلف حجاب أسود. ها هو ذا الآن، وعلى العكس، غارق في بياض مبهر، مطبق، بياض يبتلع بدلاً من أن يمتص، لا الألوان فقط وانما كذلك كل الأشياء والكائنات كلها، وهكذا يجعلها غير مرئية مرتين.

عندما تحرّك باتجاه غرفة الجلوس، رغم الحذر الشديد في تقدّمه، مرّر يداً مترددةً على الحائط ولم يكن يتوقّع وجود أي عائق، طوّح مزهريةً فتحطمت على الأرض. لقد نسي وجود شيءٍ كهذا، أو ربما تكون زوجته قد وضعتها هناك قبل أن تغادر البيت الى عملها، بقصد أن تجد لها مكانا أنسب فيما بعد. حاول تجميع الورود، ونسي أمر الزجاج المحطّم، فدخلت نثرة زجاج طويلة في أصبعه، وعندما شعر بالألم، طفرت من عينيه دموعُ يأسٍ صبيانية. أعمى مع البياض وسط شقته التي تظلم مع هبوط المساء. لاتزال الورود في يده، ولا يزال يشعر بالدم ينزف.. تلوّى ليخرج منديلا من جيبه ليضمّد إصبعه النازف، بأفضل ما يسعه، ثم راح يدور حول الأثاث، متخبِّطاً، متعثراً، ينقل خطواته بقلقٍ خشيةَ أن يدوس على السجادة.. نجح، أخيراً، في بلوغ الأريكة حيث يجلس هو

وزوجته ويشاهدان التلفزيون، جلس، وضع الورود في حضنه، ثم وبكل حرص ممكن، فك المنديل. كان ملمس الدم كثيفاً. أقلقه ذلك، وفكّر أن دمه، وبسبب عجزه عن رؤيته، قد تحوّل الى مادة لدنة لا لون لها، إلى شيء ما أكثر غرابةً لا ينتمي إليه، لكنه أشبه بتهديد موجّه -ذاتيا إليه هو نفسه. ببطءٍ شديدٍ، وبرفق تلمّس بيده السليمة، حاول تحديد موضع نشرة الزجاج، حادة كخنجر صغير، انتزعها بمساعدة ظفري إبهامه وسبابته، ثم ربط المنديل حول الجرح بقوة أكبر ليوقف نزف الدم، وأسند ظهره إلى الأريكة، ضعيفاً منهكاً. بعد دقيقةٍ، وبسبب واحد من تنازلات الجسد الشائعة التي تختار الاستسلام في لحظات معيّنة من الألم المبرح أو اليأس، بينما لو انقاد الجسد للنطق وحده لكانت كل أعصابه قد تنبّهت وتوترت، اجتاح جسده نوعٌ من التعب، كان نعاساً أكثر منه تعباً حقيقياً، لكنه لا يقل ثقلا عنه. وفي الحال راح يحلم أنه كان يدّعي العماء.. حلم أنه كان وإلى الأبد يغمض عينيه ويفتحهما، وأنه مع كل اغماضة عينين وفتحهما يجد بانتظاره، كمن عاد من رحلة طويلة، كلّ صور وألوان العالم كما عرفها، ثابتة ولا تغيير فيها. لاحظ أيضا، تحت إعادة توكيد اليقين هذه، التذمّر الواهن من اللا يقين. ربما كان حلما مخادعاً.. حلماً يجب أن يخرج منه عاجلاً أو آجلاً، بدون أن يعرف أي حقيقة تنتظره في هذه اللحظة. ليس هناك تعبير أنسب منه لوصف ذلك التعب الذي يدوم بضعَ ثوان فقط، حالة شبة يقظة تهيّء المرء للاستيقاظ.. الآن، فكّر جدّياً أنه من الحماقة بمكان البقاء في حالة التردّد هذه، أستيقظ لا أستيقظ.. هناك لحظات لا خيار للمرء فيها سوى ركوب المخاطرة. ما الذي أفعله هنا وفي حضني هذه الورود،

وعيناي مغمضتان وكأني خائف من فتحهما. ما الذي تفعله هناك، نائم وتلك الورود في حضنك، سألته زوجته.

لم تنتظر الردَّ، شرعت تجمع حطام المزهرية وتحاول تجفيف الأرضية، وهي تغمغم من حين لآخر بغضب تعمّدت عدم إخفائه.. كان بوسعك تنظيف المكان بدلاً من النوم هناك وكأن الأمر لا يعنيك. لم يقل شيئا، واكتفى بستر عينيه خلف جفون مغمضة بقوةٍ. وفجأة لمعت في رأسه فكرةٌ، ماذا لو فتحت عيني وأبصرت، سأل نفسه وقد سيطر عليه أملٌ قلقٌ. اقتربت منه المرأة، لاحظت المنديل المدمّى، فتلاشى غضبها للتو. أيّها المسكين، كيف حدث ذلك، سألته برقة وهي تحلّ الضماد الذي لفّه كيفما اتفق. عندئذٍ رغب وبكل جوارحه أن يرى زوجته راكعةً عند قدميه، حيث يعرف أنها راكعةٌ هناك، ثم فتح عينيه وهو واثق انه لن يراها. استيقظت أخيراً إذن، أيها النوّام، قالت مبتسمةً -صمتا هنيهةً، ثم قال، أنا أعمى، لا أستطيع أن أرى. نفد صبر المرأة. كفّ عن هذه الألاعيب الصبيانية السخيفة، هناك أشياء معينة ينبغي ألا نمزح بها. كم أتمنى لو أنها كانت مزحًة، فالحقيقة أني أعمى، لا أستطيع أن أبصر شيئا. أرجوك، لا تخفني، انظر إليَّ هنا. أنا هنا، المصباح مضاء. أعرف أنك هنا، بوسعي أن ألمسك، أسمعك، أستطيع أن أتخيّل أنك أضأت المصباح، غير أني أعمى. احتضنته وبدأت تبكي، ليس صحيحاً، قل لي إن ذلك ليس صحيحا. سقطت الورود على الأرض فوق المنديل المدمى. بدأ الدم ينزّ ثانية من الاصبع المجروح. كأن ذلك النزف هو آخر ما يشغل باله.. غمغم، إني أرى كلَّ شيء أبيض، وابتسم ابتسامةً حزينةً. جلست المرأة قربه، احتضنته بقوة، ثم قبّلته بلطف على جبينه، وعلى خدّه، وبرقّةٍ

www.9ofy.com

على عينيه، سترى أنها أزمةٌ وتمرّ، فأنت لم تكن مريضاً، لا أحد يعمى هكذا بين لحظةٍ وأخرى. ربما. أخبرني كيف حدث ذلك، بماذا شعرت،متى، أين، لا، ليس بعد، انتظر، أول ما يجب فعله هو استشارة اختصاصي عيون، أتتذكر اختصاصياً ما. لا.. كلانا لم يسبق له أن لبس نظارةً. وإن أخذتكَ إلى المشفى فمن غير المرجح أن نجد هناك عيادة طوارئ للأعين التي فقدت بصرها. أنت محقّة، الأفضل أن نذهب الى عيادة اختصاصي. سأبحث في دليل الهاتف عن اختصاصي هنا في الجوار. نهضتْ وهي تلاحقه بالأسئلة، هل تشعر بأيّ اختلافٍ. لا. انتبه، سأطفئ الضوء، وبعدئذٍ تقول لي بما تشعر. أطفأته. لا شيء. ماذا تعني بلا شيء. لا شيء، أرى البياض نفسه دائماً، وكأن لا عتمة هناك.

استطاع أن يسمع زوجته تقلّب صفحات دليل الهاتف، وهي تنشق كي تغالب دموعها، تتنهد، وأخيراً قالت، هذا يناسبنا، لنأمل أن يستطيع استقبالنا. أدارت قرص الهاتف، سألت إن كانت هذه عيادة جراحية، وإن كان الطبيب موجودا، وإن كان بوسعها التحدث إليه. كلا، الطبيب لا يعرفني. الحالة طارئة. نعم، من فضلك. أفهمكَ، سأشرح لك الحالة إذن، لكن أرجو أن تبلّغها للطبيب، في الواقع إن زوجي قد أصيب بعمىٍ مفاجئ. نعم، نعم مفاجئ تماماً. كلا، كلا ليس من زبن الطبيب، ثم إنه لا يلبس نظارة، ولم يلبسها قط. نعم بصره ممتاز، مثل بصري، أجل إنه عشرة على عشرة. آه، شكراً جزيلاً، سأنتظر، سأنتظر. نعم دكتور، مفاجئ تماماً، يقول إنه يرى كل شيء أبيض. ليس لديّ فكرة عمّا حدث، لم يكن لدي الوقت لأستفسر، لقد وصلت البيت الآن فوجدته في هذه الحال. أتريد أن أستفسر منه. آه، أنا ممتنةٌ لك دكتور، سنأتي

حالاً، حالاً. نهض الأعمى. انتظر، قالت زوجته، دعني أولاً أضمّد لك اصبعك. غابت بضع لحظات ثم عادت ومعها زجاجة بروكسيد، زجاجة يود، قطن وشاش ولاصق طبي. وهي تضمد له جرحه سألته، أين تركت سيارتك، وفجأة واجهته بحجتها، لكن ليس بمقدورك قيادةُ سيارة بحالتك هذه. أم أنك كنت في البيت عندما حدث ذلك. كلا، حدث الأمر في الشارع عندما كنت متوقفا عند شارة مرور، حمراء، وأحضرني الى البيت شخصٌ ما، وقد ركن السيارة في الشارع المجاور. عظيم. دعنا ننزل إذن، تنتظر عند الباب ريثما أذهب وأحضرها. أين وضعت المفاتيح. لا أعرف -لم يُعد لي المفاتيح. من هو، الرجل الذي جاء بي إلى البيت. أكان رجلاً، لابد أنه وضعها في مكانٍ ما، سأبحث عنها. لا فائدة من البحث عنها، فهو لم يدخل الشقة. لكن لابد أن تكون المفاتيح في مكانٍ ما. الأرجح أنه نسي وأخذ المفاتيح معه دونما قصد- هذا ما كان ينقصنا. استخدمي مفاتيحك، وبعدئذٍ نحلّ هذه المشكلة. حسن، دعنا ننطلق، أمسك بيدي. إن بقيتُ على هذه الحال، قال الأعمى، فإني أفضّل الموت عليها. أرجوك كفّ عن التفاهات، يكفينا ما نحن فيه. أنا الأعمى لا أنتِ، لا يسعك تخيّل الأمر، سيجد لنا الطبيب علاجاً ما، سترى. سأرى.

غادرا الشقة. في الأسفل، في ردهة البناية أضاءت زوجته المصباح وهمست في أذنه، انتظرني هنا، وإن قابلك أحد الجيران فكلّمه بشكل طبيعي، قل إنك تنتظرني، فما من أحدٍ ينظر إليك يمكن أن يخالك لا تبصر، إضافة إلى أننا غير مضطرين لإخبار الناس عن مصائبنا- نعم، لكن لا تتأخري. انطلقت زوجته مسرعةً. لم يدخل البناية أو يغادرها

أحد من الجيران. كان الرجل يعرف، بالخبرة، أن درج البناية فقط يبقى مضاءً، هكذا وبما أنه قادر على سماع صوت فاصل الكهرباء الأوتوماتيكي راح يضغط زر مفتاح المصباح الكهربائي كلما خيّم الصمت. والضوء، لقد تحوّل هذا الضوء إلى صخبٍ بالنسبة إليه. لم يستطع أن يتفهّم سببَ تأخر زوجته في العودة، فالشارع قريب، نحو ثمانين أو مئة متر. وإذا ما تأخرنا كثيرا فقديذهب الطبيب، هكذا فكر لنفسه. لم يستطع مقاومة حركاته العفوية، كأن يرفع معصمه ويخفض بصره لينظر الى ساعة يده. تلمَّظ وكأنه يعاني من ألم ما.. وشعر بفرح غامر لأن أحداً من الجيران لم يره الآن، فلو كلّمه أحد الجيران الآن وهنا لطفرت الدموع من عينيه. توقفت سيارة في الخارج. أخيراً، فكر لنفسه، لكنه على الفور لاحظ أن ذلك ليس صوت محرك سيارته، فهذا صوت محرك ديزل، لابد أنها تاكسي، فكر لنفسه وضغط ثانية زر المفتاح الكهربائي. عادت زوجته منفعلةً وقلقةً، سامريُّك الطيب* ذاك، تلك الروح الطيبة، قد أخذ سيارتنا. غير ممكن، لابد أنكِ لم تبحثي جيداً. بالطبع بحثت جيداً ولا يوجد خلل في بصري، انزلقت تلك العبارة الأخيرة على لسانها عن غير عمد، فسارعت إلى تدارك الأمر مضيفة، قلت لي إن السيارة في الشارع المجاور، وهي ليست هناك هذا إن لم تكن قد وضعت في شارع آخر. كلا، كلا، أنا واثق أنها قد تُركت في ذلك الشارع. حسن إذن فقد اختفت السيارة. في تلك الحالة ماذا جرى للمفاتيح. لقد اغتنم فرصة ارتباكك وكربك وسرقنا. لم أخطئ إذن عندما لم أرغب في مكوثه معي في الشقة ريثما تعودين من العمل، ذلك لأني

* صفة تطلق على الشخص الذي يتعاطف مع الآخرين ويساعدهم عند الحاجة . (م)

خشيت أن يسرق شيئاً ما، فربما لم يكن ليكتفي بسرقة السيارة فقط. دعنا ننطلق فالتاكسي بانتظارنا، أقسم لكَ أني مستعدة أن أخسر سنة من عمري مقابل أن أرى هذا الوغد أعمى أيضا. لا ترفعي صوتكِ هكذا. وقد سلبوه كل ما يملك أيضا. ربما سيظهر ذات يوم. هاه، أتظن أنه سيأتيك غداً ويقول إنه قد أخذ سيارتك في لحظة سهو، وإنه يريدأن يعتذر ويطمئن إلى أنك تشعر بتحسّنٍ.

بقيا صامتين حتى وصلا عيادة الطبيب. حاولت ألا تفكّر في السيارة التي سُرقت. كانت تعصر يد زوجها في يدها بحنان. بينما أحنى رأسه بحيث لا يستطيع سائق التاكسي أن يرى عينيه في المرآة. ولم يستطع التوقف عن مساءلة نفسه كيف أمكن أن تنزل به هذه المأساة المرعبة، لماذا أنا. كان بوسعه سماع صخب حركة المرور، الصوت الغريب الصاخب كلما توقفت التاكسي. يحدث غالباً أن نكون نائمين وتخترق أصوات خارجية حجاب اللاشعور الذي نكون مازلنا مغلفين داخله.. وكأننا مغلّفون بحجاب أبيض. كما لو أننا في غطاء أبيض. هزّ رأسه متنهداً وربَّتت زوجته على خده بلطف، وتلك طريقتها لتقول له، إهدأ، أنا هنا. أسند رأسه إلى كتفها غير مبالٍ فيما يمكن أن يفكر فيه السائق. لو كنت مكاني ولم تعد قادراً على سياقة السيارة بعد، فكر لنفسه على نحو طفولي، ثم هنأ نفسه وسط يأسه، متناسياً عبثية ملاحظته هذه، على أنه مازال قادراً على التفكير منطقياً. لدى نزوله من السيارة بمساعدة خفية من زوجته، بدا هادئا، لكن لدى دخوله عيادة الطبيب حيث سيعرف قدره، سأل زوجته بهمسٍ مروّع، كيف سأبدو عندما أخرج من هذه العيادة، وهزّ رأسه كأنه قد تخلّى عن كلّ أمل.

www.9ofy.com

أخبرت زوجته موظف الاستقبال، أنا من تلفنت منذ نصف ساعة بسبب حالة زوجي. قادهما الموظف إلى غرفة صغيرة حيث ينتظر مرضى آخرون. كان هناك رجلٌ كهلٌ على إحدى عينيه عصابة سوداء، طفل صغير يبدو أنه أحول وبرفقته والدته، فتاة تلبس نظارةً سوداء، وشخصان آخران ليس فيهما شيء مميّز، لكن لا يوجد بينهم أعمى، فالعميان لا يستشيرون اختصاصي عيون. قادت المرأة زوجها الى الكرسي الشاغر الوحيد ووقفت بقربه. حسن، علينا أن ننتظر، همست في أذنه. لقد عرف السبب، لأنه سمع أصوات الموجودين في غرفة الانتظار. والآن بدأ يهاجمه قلقٌ آخر، فاعتقد أنه كلما تأخر الطبيب في الكشف عليه ازداد عماه سوءاً لدرجة يصعب معها شفاؤه- تململ في كرسيه، قلقا، كان على وشك مصارحة زوجته بهواجسه، عندما انفتح الباب في اللحظة نفسها وقال موظف الاستقبال، تفضّلا بالدخول، والتفت إلى المرضى الآخرين، هذه أوامر الطبيب، فحالة هذا الرجل عاجلة. احتجّت والدة الطفل بأن الحق حق، وأنها كانت أول المنتظرين منذ أكثر من ساعة. وافقها المرضى الآخرون بصوتٍ خفيض، بيد أن أحداً منهم ولا حتى المرأة نفسها لم يفكر بأنه من الحكمة التمادي في التذمّر، وذلك خشية أن يتضايق الطبيب ويقابل وقاحتهم بجعلهم ينتظرون وقتا أطول، كما قد جرى. كان الرجل ذو العين المعصوبة شهماً إذ قال، دعوا الرجل المسكين يدخل، إن حالته أسوأ من حالاتنا جميعاً. لم يسمعه الأعمى لأنه وزوجته قد أصبحا داخل غرفة المعاينة، وكانت زوجته تقول، شكراً جزيلاً على لطفك دكتور، المسألة أن زوجي، وتوقفت عند هذه العبارة، لأنها بصراحة لم تكن تعرف ما جرى، فكل ما عرفته أن زوجها

قد عَميَ وأن سيارتهما قد سُرقت. تفضلا بالجلوس، قال الطبيب، وقام هو بنفسه بمساعدة المريض للجلوس في كرسيه، ثم لمس يده، وكلّمه مباشرةً. قل لي الآن، ما الأمر. أوضح الرجل الأعمى أنه كان في سيارته، ينتظر تبدّل شارة المرور الحمراء الى خضراء، عندما فجأة لم يعد قادراً على الرؤية، وأن عدّة أشخاص اندفعوا لمساعدته، وأن امرأةً كهلة، هكذا قدَّر من صوتها، قالت إنه ربما كان الأمر حالةً عصبية، وأنه بعدئذٍ رافقه رجل إلى بيته لأنه لم يكن قادراً على الوصول إليه بمفرده. إني أرى كل شيء أبيض، دكتور. لم يخبره شيئاً عن السيارة التي سُرقت.

سأله الطبيب هل حدث لك شيء مشابه من قبل، أو ما يقاربه -كلا دكتور- حتى أني لا أستخدم نظارة. وتقول إنه حدث فجأة تماما. نعم. كانطفاء الضوء. نعم يشبه الى حدٍّ بعيدٍ انطفاءَ الضوء. هل شعرت في الأيام السابقة بأي اختلاف في بصرك. كلا. هل يوجد، أو وُجد من قبل حالةُ عمى في عائلتك. كلا ولا واحدة بين كل الأقارب الذين أعرفهم أو سمعت عنهم. هل تعاني من السكّري. كلا. من السفلس. كلا. من ارتفاع الضغط الشرياني أو إصابة دماغية. فيما يخص الإصابة الدماغية لست جازماً، لكن بالنسبة إلى الأخريات، كلا. إذ أننا نخضع لفحص طبي دوري في العمل. هل تلقيت صدمةً عنيفةً على رأسك، اليوم، أمس، كلا. كم عمرك. ثماني وثلاثون. عظيم، دعنا نفحص عينيك. فتح الرجل الأعمى عينيه على اتساعهما، معتقداً أن ذلك يسهّل عملية الفحص، إلا أن الطبيب أخذه من ذراعه وأجلسه خلف الفاحص الاوتوماتيكي الذي يمكن لأي صاحب مخيّله أن يراه كنسخة جديدة من كرسي الاعتراف، وتنوب العينان هنا مناب الكلمات، وينظر

متلقي الاعتراف في روح الآثم مباشرة. أرح ذقنك هنا، قال الطبيب، وابق عينيك مفتوحتين، ولا تتحرك. اقتربت المرأة من زوجها، ووضعت يدها على كتفه، ثم قالت، هذا سيقدم لنا الكلمة الفيصل، سترى. رفع الطبيب المنظار وأخفضه من جهته، أخيراً أشعل الأزرار المنظّمة وبدأ الفحص. لم يستطع أن يجد خللاً في القرنية، لا شيء في الصلبتين، والبؤبؤين... الشبكية، عدستا العينان.. اللطخة الصفراء، والعصب البصري كلُّها سليمة، ولا أذيّة في أي مكان آخر. نحّى الجهاز جانباً، فرك عينيه، ثم أعاد الفحص ثانية من البداية، من دون أن يتكلم. وعندما انتهى كان على وجهه تعبير حيرة. لم أستطع أن أجد أيّ آفة. عيناك سليمتان. ضمّت المرأة يديها بإيماءة سعادة وهتفت، ألم أقل لك، ألم أقل لك، يمكن حل هذه المعضلة. تجاهل الأعمى زوجته، وسأل الطبيب، أيمكن أن أرفع ذقني، دكتور. بالطبع، اعذرني. إن كانت عيناي سليمتين كما تقول، فلماذا أنا أعمى. حاليا لا أستطيع أن أجيبك، فيجب أن نجري بعض الاختبارات الدقيقة، والتحاليل، دراسة لطبوغرافيا العين، تخطيط إيكو. أتعتقد أن لذلك علاقةً بالدماغ -ممكن لكني أشك في ذلك. ومع ذلك تقول إنك لم تستطع أن تجد خللاً في عيني. صحيح. أمر غريب. ما أحاول قوله إنك إن كنت، في الواقع أعمى، فإن عماك عصيٌّ على التفسير الآن. هل تشك في أني أعمى. لا، على الإطلاق. فالمشكلة هي في الطبيعة غير العادية لحالتك، فأنا شخصيا، طول سنوات ممارستي للمهنة لم أصادف حالةً شبيهةً بحالتك، بل وأجرؤ وأقول إنه لم تعرف حالةٌ كهذه في تاريخ طب العيون كلّه. هل تعتقد أن هناك شفاءً. من حيث المبدأ، وبما أني لم أجد آفةً من أيّ نوعٍ،

أو أيّ تشوّه خلقي، فجوابي هو التأكيد، لكن من الواضح أن الأمر غير مؤكد تماما، وذلك فقط بدافع الحذر، لأني لا أريد أن أبني آمالاً قد يتضح أنها غير مسوّغة. أفهمك. تلك هي حالتك. وهل هناك من علاج أتبعه، دواء أو آخر. لا أفضّل الآن إعطاءك أي وصفة، لأنها ستكون وصفة في الظلام. هذا توصيف ذكي، علّق الأعمى. تظاهر الطبيب أنه لم يسمعه. نهض عن الكرسي الدوار الذي كان يجلس عليه أثناء إجراء الفحص، كتب وصفة بالاختبارات والتحاليل التي حسبها ضروريةً، وناولها الى الزوجة. خذي هذه وعودي مع زوجك بعد أن تحصلا على النتائج، خلال ذلك وإن جرى أي تغيّر في حالته تلفني لي. بكم نحن مدينان لك دكتور. الدفع عند موظف الاستقبال. رافقهما الطبيب الى الباب، غمغم كلمات مؤكدا، دعونا ننتظر ونرى، دعونا ننتظر ونَرى، يجب ألا تيأسا. وعندما خرجا دخل الطبيب الى غرفة الحمام الصغيرة المجاورة لغرفة المعاينة وحدّق في المرآة طويلا، ماذا يمكن أن يكون هذا، غمغم لنفسه. من ثمَّ عاد إلى غرفة المعاينة، طلب موظف الاستقبال، أرسل إلي المريض التالي.

في تلك الليلة حلم الرجل الأعمى أنه كان أعمى.

www.9ofy.com

عندما تطوّع الرجل الذي سرق السيارة لمساعدة الأعمى، لم يكن لديه أيّ نيّة سيّئة، في تلك اللحظة بالتحديد، على العكس من ذلك، فما فعله كان الانقياد لمشاعر الشهامة والغيرية اللتين، كما نعرف جميعا، تعدّان أفضل سمتين في الطبيعة البشرية، وهما موجودتان لدى مجرمين أكثر شراسةً من هذا، مجرد سارق سيارات بسيطٍ ولا أمل له في التقدّم في عمله هذا، ويتعرّض للاستغلال من قبل المسيطرين الحقيقيين على هذه الحرفة، لأنهم هم المستفيدون من عوز اللصوص الصغار المساكين. وفي نهاية المطاف لا فرق كبيرا بين مساعدة أعمى فقط كي تسرقه بعد ذلك وبين العناية بعجوزٍ بعين واحدة، يتلعثم ويترنّح، بفعل أمراضٍ وراثية. لم يخطر له أمرُ السرقة وبشكل طبيعي، إلا عندما اقترب من بيت الأعمى، ويمكن للمرء أن يقول، بدقة، كأنه قرر شراء ورقة يانصيب عندما رأى بائع اليانصيب، ولم يندفع إلى ذلك بحسٍّ باطني، فقد اشترى الورقة ليرى ما قد تجلبه له، قانعاً سلفاً بأي

ثروة تجلبها له، كيفما كانت، شيئاً ما أو لا شيء. سيقول آخرون إنه تصرف وفقاً لما يكشفه الشرط عن شخصيته. يؤكد المتشكّكون، وهم كثر وعنيدون، أنه عندما تكون الكلمة الفصل للطبيعة البشرية، فإنه إذا كان صحيحا أن الفرصة لا تصنع اللص دائماً، فالصحيح أيضا أنها تساهم في صنعه إلى حد بعيد.

بالنسبة إلينا من الأفضل أن نفكر لو أن الرجل الأعمى قد قبل العرض الآخر لذلك السامري المزيّف، فربما كانت الشهامة مازالت هي الراجحة في تلك اللحظة، ونشير هنا إلى عرضه المكوث مع الأعمى حتى تعود زوجته، فمن يعرف إذا ما كانت المسؤولية الأخلاقية، التي تنتج عن الثقة الممنوحة له تكبح ذلك الإغواء الإجرامي وتسهّل انتصار تلك العواطف النبيلة الألقة التي يمكن أن توجد دائماً حتى في أكثر النفوس فساداً. ولنختم بهذه العبارة العامية، كما لم يحاول المثل القديم أن يُعلمنا قط، فعندما يحاول الأعمى أن يتجاوز نفسه فإنه ينجح فقط في كسر أنفه.

إن الضمير الأخلاقي الذي يهاجمه الكثير من الحمقى وينكره آخرون كثر أيضا، هو موجود وطالما كان موجوداً، ولم يكن من اختراع فلاسفة الدهر الرابع، حيث لم تكن الروح أكثر من فرضيّة مشوشة. فمع مرور الزمن، والارتقاء الاجتماعي أيضا والتبادل الجيني، انتهينا إلى تلوين ضميرنا بحمرة الدم وبملوحة الدمع، وكأن ذلك لم يكن كافياً فحوّلنا أعيننا إلى مرايا داخلية، والنتيجة أنها غالبا تُظهِّرُ من دون أن تعكس ما كنا نحاول إنكاره لفظياً. أضف إلى هذه الملاحظة العامة، الظرف الخاص للعقول البسيطة، فإن الندم الناتج عن اقتراف ذنب ما غالباً ما

يختلط مع أنواع المخاوف السلفية، وتكون النتيجة بالتالي أن تصبح عقوبة المراوغ، من دون رحمة أو شفقة، ضعفي ما يستحقه. في هذه الحالة، وبناءً عليه، من المستحيل أن نحدد مقدار حصة الخوف ومقدار حصة الضمير الموجع اللتين بدأتا ترهقان اللص في تلك اللحظة التي شغل فيها محرك السيارة ليقودها. لاشك في أنه لم يستطع أن يهدأ في جلسته في مكان شخص عمي فجأة عندما كان يدير عجلة القيادة هذه، فقد كان ينظر عبر زجاج السيارة الأمامي هذا، عندما، فجأةً، لم يعد قادراً على الرؤية. ولا نحتاج إلى خيالٍ خصبٍ كي ندرك أن أفكاراً كهذه، تثير هولة الخوف الشنيع والغادر، قد أطلّت برأسها في الحال. لكنه الندم أيضا، سيماء الضمير المحزون للمرء كما عُبِّر عنه سابقاً أو إن أردنا التعبير عنه بكلمات إيحائية، ضمير ينهش، هو الذي كان يعيد أمام ناظريه تلك الصورة البائسة للرجل الأعمى وهو يغلق باب بيته وهو يقول له، لا داعي لذلك، لا داعي لذلك. ومنذئذٍ فصاعداً لن يكون قادراً على أن يخطو خطوةً واحدةً بلا مساعدةٍ.

ضاعف اللص من تركيزه على شارات المرور، ليمنع أفكاراً مرعبة كهذه من أن تسيطر على ذهنه. كان يعرف جيداً أنه يجب ألا يسمح لنفسه بأدنى خطأ، بأدنى هفوة، فالشرطة موجودة في كل مكان ويكفي فقط أن يوقفه أحدهم، بطاقتك الشخصية ورخصة القيادة، عُدْ الى السجن، يا لها من حياةٍ قاسيةٍ. كان أكثر حرصا على الانقياد لشارات المرور، وما كان ليتجاوز شارة حمراء تحت أي ظرف كان، بل يحترم الشارة الكهرمانية، وينتظر بمنتهى الصبر نور الشارة الخضراء. ولاحظ عند حد معين، أن انتباهه الى شارات المرور أصبح استحواذياً. بعدئذٍ

www.9ofy.com

راح يَضْبُط سرعة السيارة ليضمن وصوله الى شارة المرور التالية عندما تكون الشارة خضراء، سواء اضطره ذلك الى زيادة السرعة أو إنقاصها إلى درجة تزعج سائقي السيارات من ورائه. أخيراً، وبسبب ارتباكه هذا، وتوتره الذي يفوق قدرته على الاحتمال، اتجه بالسيارة الى الشوارع الفرعية حيث يعرف ألاّ شارات مرور هناك، وصفَّ السيارة بدون أن ينظر في المرآة الأمامية، فقد كان سائقاً بارعاً. شعر أن أعصابه على حافة الانهيار. كان الجو خانقاً داخل السيارة، فأخفض زجاج النوافذ الأمامية قليلاً بيد أن الهواء في الخارج، هذا إن كان الهواء يتحرك، لم يجدد الهواء داخل السيارة. ماذا سأفعل، سأل نفسه. فالمخبأ الذي سيقود السيارة إليه بعيد جدا، في قرية خارج المدينة. ولن يستطيع في حالته الذهنية هذه، الوصول إلى هناك. فإما أن تعتقله الشرطة، وإمّا أن يقع له حادث وهذا أسوأ، غمغم لنفسه. عندئذٍ خطر له أنه من الأفضل أن يخرج من السيارة قليلاً ويحاول أن يصفّي ذهنه، ربما ينعشه الهواء الطلق. لئن عَميَ ذلك المسكين التعس فما من منطق يعلل حدوث الشيء نفسه لي، فهذا عمى وليس نزلة برد مُعدية. سأتمشى قليلاً حول البناية وينتهي الأمر. ترجّل من السيارة ولم يزعج نفسه بإقفالها لأنه سيعود بعد دقيقة، غير أنه ما أن سار ثلاثين خطوةً حتى عَميَ.

في عيادة الطبيب كان الكهل الطيب، الذي تكلم بلطف عن الرجل المسكين الذي عمي فجأة، آخر من دخل غرفة المعاينة. جاء لتحديد موعد العمل الجراحي لرفع الساد الذي ظهر في عينه السليمة المتبقية له، لأن العصابة السوداء كانت تغطي، محجراً فارغاً، ولا حيلة له مع هذا الساد. فهذه أمراض تظهر مع التقدّم في العمر، قال له الطبيب فيما

مضى، وعندما يكتمل الساد نزيله بعمل جراحي، وإلا فلن تكون قادراً على الرؤية. عندما خرج المريض ذو العين المعصوبة، وأخبرت الممرضة الطبيب أنه لم يتبق مرضى في العيادة، أخرج الطبيب ملف الرجل الذي عمي فجأة، قرأه مرةً واثنتين، فكّر مليّاً لبعض الوقت، وتلفن أخيراً لزميل، وجرى بينهما الحديث التالي، يجب أن أخبرك أني واجهت اليوم حالة هي الأغرب من نوعها في طب العيون. رجل فقد بصره كليا في غمضة عين، ولم يكشف الفحص الطبي عن أي آفة واضحة أو دلائل تشوّه خلقي، يقول إنه يرى كل شيء أبيض، بياضاً كثيفاً، حليبياً، يغشو عينيه. إني أحاول أن أشرح لك الأمر كما بيّنه لي هو. نعم، بالطبع شخصي. كلا، إنه شاب نسبياً، عمره ثمانية وثلاثون عاماً. هل سمعت بحالة كهذه، أو قرأت عنها، أعتقد أني لا أستطيع في الوقت الراهن أن أفكر في حلّ، ولأكسب الوقت اقترحت عليه إجراء بعض التحاليل والفحوص. نعم، بوسعنا فحصه معاً قريباً، بعد الغداء سأبحث اليوم في بعض الكتب، سأنظر في بعض المراجع لعلّني أجد مفتاحا ما. نعم إني ملمٌ بموضوع العمه*، قد يكون عمى بسيكولوجيا، لكن عندئذٍ ستكون هي الحالة الأولى من نوعها، لأنه ما من شك في أن الرجل أعمى حقيقة، وكما نعلم فإن العمه هو العجز عن تمييز الأشياء المألوفة، لأنه خطر لي أيضاً أنها قد تكون حالة (كُمنة) عمى جزئي أو كلي، لكن تذكر ما أخبرتك به في البدء، فهذا العمى أبيض، على عكس الكمنة، تماما، التي يكون فيها العمى كليَّ السواد هذا إذ لا توجد هناك بعضُ

* Agnosia : العمى الحسي وهو فقدان القدرة على فهم المنبهات الحسية . أو عدم تمييز الأشياء . عدم الادراك . عجز المرء عن التمييز بين أشكال الأشياء والأشخاص وطبيعتها . (موسوعة علم النفس)

أنواع الكمنة البيضاء، سواد أبيض إن جاز القول. نعم، أعرف، شيء ما غير معروف، موافق، سأتلفن له غداً، أقول له إننا نودّ فحصه معا. بعد أن أنهى الطبيب مكالمته، استرخى في كرسيه، وبقي ساكنا بضع دقائق، ثم نهض، خلع مريوله الأبيض ببطء وبحركات متعبة. دخل غرفة الحمام ليغسل يديه، لكنه لم يسأل المرآة هذه المرة، السؤال الميتافيزيقي، ماذا يمكن أن يكون هذا، بل استعاد استشرافه العلمي، إن حقيقة كون العمه والكمنة معرّفين ومحددين بدقة متناهية في الكتب وعمليا، لا تمنع من ظهور أشكال مختلفة، تحوّلات هامة، إنْ صحّ التعبيرُ، وقد آن أوان ظهورها. هناك آلاف الأسباب لانغلاق الدماغ، أجل هذه فقط ولا شيء غيرها، مثل زائر متأخر يصل فيجد باب بيته مغلقاً. كان طبيب العيون ذواقة للأدب ولديه ميلٌ لختم أحاديثه بمقتطفات مناسبة.

في تلك الليلة وبعد العشاء، أخبر زوجته أن حالة عمى غريبة واجهته اليوم في العيادة، قد تكون شكلاً من أشكال العمى السيكولوجي أو الكمنة، لكن ليس هناك اثبات علمي على ظهور أمراض كهذه. ما هذه الأمراض، الكمنة، وذاك الشيء الآخر، سألته زوجته. شرح لها الطبيب بكلمات لا تستعصي على فهم الشخص العادي وترضي فضوله. ثم اتجه إلى مكتبته الزاخرة بالكتب الطبية، بعضها من أيام الدراسة الجامعية، بعضها أقدم، وبعضها الآخر حديث لم يتوفّر له الوقت لقراءتها بعد. كان يبحث في فهارس الكتب، وليعمل منهجياً شرع يقرأ كل ما وجده عن العمه والكمنة، لكن بدون أن يفارقه الانطباع المؤرق بأنه يقتحم حقلاً لا قدرة له على الخوض فيه، حقل جراحة الأعصاب الغامض، حقلاً لا يعرف عنه إلا القليل. وفي وقت متأخّر من

تلك الليلة نحّى جانبا الكتب التي كان يقرؤها، فرك عينيه واسترخى في كرسيّه. في تلك اللحظة ظهر البديل من تلقاء نفسه في أوضح صورة ممكنة. لئن كانت حالة عمه، فيجب أن يكون الأعمى قادراً على رؤية ما كان يراه دائماً، أي يجب ألا يكون هناك نقص في مقدرته البصرية، والمشكلة ببساطة هي في أن دماغه غير قادر على رؤية الكرسيّ في مكانها، أي، مازال قادراً على الاستجابة الدقيقة للمنبه الضوئي الذي يصل العصب البصري، لكنه، ولنستخدم كلمات بسيطة في متناول فهم الإنسان العادي، فقد قدرة التعبير عنه. أما بالنسبة إلى الكمنة، فلا شكّ في الأمر، إذ أنه في الكمنة يجب أن يرى المريض كل شيء مظلما، هذا إذا تغاضينا عن استعمال فعل الرؤية هنا، حيث، وفي هذه الحالة، تكون الظلمة كليةً. لقد أوضح الأعمى بشكل قاطع أنه يستطيع أن يرى، إن تغاضينا عن فعل الرؤية ثانية، لوناً أبيض كثيفاً، كأنه قد غطس بعينين مفتوحتين في بحر حليبي. فالكمنة البيضاء، بمعزل عن أنها مناقضة للمعنى الحرفي للمصطلح، مستحيلةٌ من الناحية العصبية، حيث أن الدماغ العاجز، في الكمنة، عن إدراك الصور، وأشكال وألوان الواقع، سيكون بالمِثْلِ عاجزاً عن رؤية لون أبيض، أبيض صاف، كطلاء أبيض لا تتخلله أيّ تنويعات لونية، والأشكال والصور التي يمكن أن يظهرها الواقع نفسه أمام ناظري امرئ سليم البصر، ومهما تعذّر التعبير الدقيق عن الرؤية الطبيعية. هزّ الطبيب رأسه بقنوطٍ، وتلفّت حوله مدركاً بوضوح أنه قد وصل نهايةٍ مسدودةٍ. لقد أوت زوجته الى الفراش، تذكّر كالخيال، أنها اقتربت منه وقبّلته على جبينه ولا بد أنها قالت، أنا ذاهبة للنوم. كان الصمت يسود الشقة الآن، والكتب مبعثرة فوق

www.9ofy.com

الطاولة. ماهذا، فكر لنفسه، وشعر بالخوف فجأة، كأنه سيعمى في غمضة عين وقد أدرك ذلك الآن. حبس أنفاسه وانتظر. لم يحدث شيء. حدث بعد دقيقة عندما كان يجمع الكتب ليعيدها الى المكتبة. أدرك في البدء أنه لم يعد قادراً على رؤية يديه، عندئذٍ عرف أنه قد عمي.

لم يكن مرض الفتاة ذات النظارة السوداء خطيراً، فقد كانت تعاني من التهاب ملتحمة خفيف ستقضي عليه قريباً القطرة التي وصفها لها الطبيب. تعرفين ماذا يتوجب عليك، يجب ألا تنزعي نظارتك إلا أثناء النوم. إنه يكرّر هذه النكتة منذ سنوات. وبوسعنا الافتراض أنها نكتة يتناقلها أطباء العيون من جيلٍ الى آخر، لكنها لا تبهت. كان الطبيب يبتسم وهو يكلّمها، وابتسمت المريضة وهي تصغي إليه. وبالمناسبة، فقد كانت ابتسامةً ذات شأن، إذ أن أسنان الفتاة جميلة، وكانت بارعةً في استعراضها. فبدافع من طبيعته المبغضة، أو خيباته الكثيرة في الحياة، فإن أي متشكك ملمّ ببعض تفاصيل حياة هذه المرأة، سيلمّح إلى أن رقّة بسمتها ليست أكثر من خدعة تسويقية، توكيد وغدٍ مجاني، لأن ابتسامتها لاتزال كما هي عندما كانت طفلة صغيرة تحبو، حيث كان مستقبلها لا يزال كتابا مغلقا ولم يُخلق بعد دافعُ الفضول إلى فتحه. باختصار، يمكن تصنيفُ هذه المرأة كسومس، إلا أن تعقيد شبكة العلاقات الاجتماعية، سواء في الليل أو في النهار، أفقياً أو عموديا، لهذه الفترة الزمنية الموصوفة هنا، يحذرنا -هذا التعقيد- من مغبة الإسراع في إطلاق الأحكام النهائية، ذلك الهوس الذي، بسبب افراطنا في ثقتنا الذاتية، لن نتخلص منه البتة. رغم إمكانية التأكد من كميّة الغيوم الموجودة هناك لدى جونو، فمن غير الجائز كليا، الاصرار على

الخلط بين -جونو- ربة المطر الاغريقية وبين قطرات ماء كثيفة عالقة في الجو ليس أكثر. لاشك في أن هذه المرأة تضاجع رجالاً مقابل النقود، وهذه حقيقة قد تسمح لنا بتصنيفها مومساً بدون عناء تفكير، لكن بما أنها أيضاً، في الواقع، لا تضاجع إلا الرجل الذي تشتهي وتريد هي مضاجعته، فليس بوسعنا إغفال إمكانية هذا الاختلاف الملموس الذي يجب أن يقرر، كنوع من الحذر، تصنيفها خارج هذه الخانة. إنها كالآخرين، تعمل، وكالآخرين أيضاً تستغل أي وقت فراغ للانغماس في إشباع رغباتها الجسدية، على الصعيدين الشخصي والعام. وإذا كنا لا نحاول إلصاق التعريف الأول بها، فيجب في نهاية المطاف أن نقول، وبالمعنى الشامل، إنها تعيش كما تشتهي، بل إنها تعيش كلَّ متع الحياة التي تستطيع.

كان الظلام قد هبط على المدينة عندما غادرت العيادة. لم تنزع نظارتها، لقد بهرتها الأنوار في الشارع، لاسيما أنوار لوحات الاعلانات. دخلت صيدليةً لتشتري وصفة الطبيب. كانت قد قرّرت ألا تعبأ بتعليق الرجل الذي سيبيعها الدواء، بأنه من غير العدل حجب بعض الأعين خلف النظارات السود.. وهذه ملاحظة رغم أنها وقحة، وصادرة عن مساعد صيدلاني، إن شئتم، فهي تخالف اعتقادها بأن النظارة السوداء تضفي عليها غموضا فتّاناً، غموضاً قادراً على إثارة انتباه الرجال الذين تمرّ بهم، اهتماماً قد تقابله بمجاملة مماثلة لولا أن هناك شخصاً ما ينتظرها اليوم، لقاءً لديها كل الأسباب لتتوقّع نجاحه على الصعيدين المادي والجسدي. فالرجل الذي ستقابله اليوم هو معرفة قديمة، ولم يعترض عندما أخبرته أنها لا تستطيع خلع نظارتها، هكذا

نصحَني الطبيب، رغم أن الطبيب لم يكن قد نصحها بذلك بعد، حتى أن الرجل وجد الأمر ممتعا، نوعا من التغيير. بعد مغادرتها الصيدلية أوقفت تاكسي، أعطت السائق اسم الفندق. استرخت في المقعد، وانغمست فوراً في تذوّق، إن صح التعبير، أحاسيس المتعة الحسية على اختلافها وكثرتها، من تلك البداية المعروفة، تلامس الشفاه، من تلك المداعبات الحميمية الأولى، الى انفجارات الرعشة المتعاقبة التي ستنهكها وتتركها سعيدةً، كأنها على وشك أن تُصلب، لتحمنا السماء، وسط لعبة نارية مبهرة ومدوّخة. وهكذا لدينا كلّ الحقّ لنستنتج أنه إنْ عرف شريك هذه الفتاة ذات النظارة السوداء كيف يقوم بواجبه جيداً، في توقيت الوصول وآلياته، فإنها ستدفع له دائماً مقدّما وضعف ما تتقاضاه هي فيما بعد. تائهة في هذه الأفكار، ولا شكّ لأنها قد دفعت أجر الطبيب، فكرت لنفسها إذا ما كان من الصواب أن ترفع ومنذ اليوم، مع تلطيف التعبير البغيض الذي لن تنطقه هي، مستوى التعويض.

طلبت من سائق التاكسي أن يتوقف على مبعدة من الفندق، وانخرطت مع حشد الناس السائرين في الاتجاه نفسه، وكأنها تسمح لنفسها أن تنجرف معهم، مجهولةً بلا أدنى أمارة إثم أو خجل ظاهرين. دخلت الفندق بشكلٍ طبيعي، عبرت الردهة متجهةً الى البار. لقد وصلت أبكر من الموعد بعدّة دقائق، لذلك عليها أن تنتظر ساعة لقائهما المحدّدة بدقة. طلبت مشروبا دافئاً، شربته خلال انتظارها، من غير أن تنظر إلى أي شخص، لأنها لا تريد أن يُنظر إليها على أنها مومس رخيصة تُطارد الرجال. بعد قليلٍ، ومثل سائحةٍ صاعدةٍ لتستريح في غرفتها بعد أن

أمضت فترة بعد الظهر في زيارة المتاحف، توجهت الى المصعد. أيعقل أنه مازال هناك امرؤ قادر على تجاهل أن الفضيلة لا تواجه دائماً الأشراك على طريق النقاء الوعر جداً، بينما الخطيئة والرذيلة تكافآن بالحظ، إذ أنها ما أن وصلت المصعد حتى انفتح بابه. خرج منه نزيلان كهلان. دخلته، ضغطت زر الطابق الثالث. تقصد الغرفة رقم ثلاثمئة واثني عشر. ها هي، طرقت على الباب بحذر، بعد عشر دقائق كانت عارية.. بعد خمس عشرة دقيقة كانت تئن.. بعد ثماني عشرة دقيقةً كانت تهمس بكلمات حبّ لم تعد بحاجة لاختلاقها، بعد عشرين دقيقة شعرت أن اللذة تمزق جسدها. بعد اثنتين وعشرين دقيقة كانت تصرخ لنشوتها، الآن، الآن. بعد أن صحت من غشيتها قالت وقد أنهكتها اللذّة، مازال بوسعي أن أرى كل شيء أبيض.

www.9ofy.com

أوصل الشرطي سارق السيارة إلى بيته- وما كان ليخطر للشرطي اليقظ الرؤوف أنه يمسك بذراع جانح متمرّس- لا ليمنعه من الهروب، كما كان يمكن أن يحدث في حالةٍ أخرى، بل خشية أن يتعثّر هذا المسكين ويقع. بالمقابل بوسعنا وبسهولة أن نتخيّل رعب زوجته من هذا المنظر، عندما فتحت الباب لترى نفسها وجهاً لوجه أمام شرطي بزيه الرسمي يقطر زوجها، السجين الحزين، من ذراعه، أو هكذا بدا لها الأمر، لأنه بالحكم على هيئة زوجها البائسة فلا بد أنه قد وقع ما هو أسوأ من الاعتقال. إذ أن أول فكرة خطرت للمرأة هي أن زوجها قد ضُبط متلبساً وقد اصطحبه الشرطي ليفتّش البيت. أعادت هذه الفكرة رغم تناقضها الظاهري، الطمأنينة الى المرأة بشكلٍ ما، هذا إذا فكرنا أن زوجها لم يكن يسرق إلا السيارات، وهذه بضاعة، بالنظر إلى حجمها، لا تخبأ تحت السرير. لم يتركها الشرطي توغل في شكوكها فأخبرها، هذا الرجل أعمى، اعتني به. لابد أن المرأة قد تنفست الصعداء لأن

الشرطي، في نهاية المطاف، كان يوصل زوجها إلى البيت فحسب، غير أنها سرعان ما أدركت خطورة الكارثة التي حلّت بحياتهما عندما ارتمى زوجها وهو يبكي بمرارة في حضنها ويخبرها بما سمعته من الشرطي.

والفتاة ذات النظارة السوداء أوصلها أيضا شرطي إلى بيت أهلها، مع اعتبار الفارق في قساوة الظرف الذي حدث فيه عماها. امرأة عارية تصرخ في فراش في فندق وتخيف النزلاء الآخرين، بينما كان شريكها في الفراش يحاول الهرب وهو يرتدي سرواله على عجل، الأمر الذي خفف إلى حدٍّ ما من وقع هذا الحدث الدرامي. تغلبت الفتاة على إحساسها بالارتباك الناجم عن وقوعها فريسة تهامسات مدّعيات الحشمة المنافقات حول توريط نفسها في طقوس هذا الحب الارتزاقي. بعد الصراخ الذي أطلقته عندما أدركت أن فقدانها بصرها لم يكن نوعاً جديداً من أنواع اللذّة غير المعروفة، لم تجرؤ على البكاء وندب قدرها عندما خرقوا عرف التعامل مع النزلاء وطردوها من الفندق عنوةً بدون أن ينتظروها لترتدي ثيابها كلها. وبلهجةٍ ساخرةٍ، هذا إن لم تكن غير لائقة، أراد الشرطي أن يعرف، بعد أن استفسر عن عنوان بيتها، إن كانت تمتلك أجرة التاكسي. ففي هذه الحالات لا تدفع الحكومة عنها، وحذّرها من إجراءات قانونية، لن نطيل التوقف عندها، مادامت تنتمي إلى أولئك النسوة اللاتي لا يدفعن ضرائب عن دخلهن غير الأخلاقي. ردّت بإيماءةٍ من رأسها، ولكونها عمياء تصوّرت، تخيّلوا ذلك، أنه ربما لم يستطع الشرطي ملاحظة إيماءتها فقالت مغمغمةً، نعم، لدي نقود. ثم قالت في سريرتها، فقط لو أني لم أفعل ذلك، هذه العبارة الغريبة التي قد تصدمنا، لكنها وإذا ما اخذنا في الحسبان التفافات العقل البشري

حيث لا وجود للطرق القصيرة أو المباشرة، هذه الكلمات نفسها توضح بجلاء أن ماأرادت قوله هو، أنها قد عوقبت بسبب سلوكها المشين، بسبب تهتّكها، وهذه هي النتيجة. كانت قد أخبرت والدتها أنها لن تعود الى البيت للعشاء، لكنها في النهاية عادت مبكرةً، حتى أنها عادت قبل والدها.

كانت حالة طبيب العيون مختلفةً، ليس لأنه عمي وهو في بيته، بل لأنه طبيبٌ، فما كان ليستسلم لليأس، مثل أولئك الذين لا ينتبهون إلى جسدهم إلا عندما يؤلمهم. حتى في حالة كرب كهذه، وليلة الأرق الطويلة التي تنتظره، كان لايزال قادراً على تذكر ما كتبه هومر في الإلياذة، أعظم قصيدة عن الموت والمعاناة، إن طبيباً يساوي عدّة رجال، ويجب ألا نقبل هذا الكلام كميّاً، إنما وقبل كل شيء نوعيّاً، كما سنرى لاحقاً، استجمع شجاعته ليأوي الى السرير دون أن يثير قلق زوجته بحالته، ولا حتى عندما غمغمت وهي نصف نائمة، وتحركت في السرير والتصقت به. استلقى يقظا عدّة ساعات، وفي النهاية استطاع أن ينام قليلاً لكن بسبب الإرهاق التام. أمل لو ان الليلة لا تنقضي كي لا يضطر للقول، هو من كانت مهنته مداواة أمراض أعين الآخرين، أنا أعمى، لكنه في الوقت نفسه كان ينتظر بقلق نور الصباح عارفا أنه لن يراه. في الواقع، إن طبيب عيون أعمى ليس ذا فائدة لأي امرئٍ. لكن كان عليه أن يبلّغ المرجعيات الصحية، أن يحذرها من هذه الحالة التي قد تنقلب الى كارثة وطنية. إنه مجرّد شكل عمى غير معروف حتى الآن ويبدو أنه شديد العدوى، عمى كلُّ مظاهره تشير إلى أنه قد يظهر بدون أي أعراض التهابية سابقة ذات طبيعة مُعدية أو تنكسية، كما استطاع أن يتأكد من

www.9ofy.com

حالة المريض الذي جاء يستشيره في عيادته، أو كما في حالته هو شخصياً حيث يعاني من حسر بصر، ولا بؤرية طفيفين لدرجة أنه قرر عدم استخدام عدسات مصحِّحة. عينان كفتا عن الرؤية، عينان عميتا تماما، رغم أنهما كانتا سليمتين تماماً، بدون أيّ آفة حديثة أو قديمة، مكتسبة أو متأصلة. استعاد تفاصيل الفحص الذي أجراه للرجل الأعمى، وكيف أن كل أجزاء العين الممكن الوصول إليها بدت من الناحية الطبية سليمةً تماماً، بدون أدنى أثر لتغيّر مرضي. إنها حالةٌ نادرةٌ جداً لاسيما عند شخصٍ يدّعي أنه في الثامنة والثلاثين من عمره، حتى أنها نادرة عند مَنْ يصغره عمراً. لا يمكن أن يكون ذلك الرجل أعمى، فكر لنفسه، ناسياً للحظة أنه هو نفسه أعمى، إنه لأمر محيّر حقاً كيف أن بعض الناس غيريّون إلى حدّ بعيد، وهذا ليس بجديد إذا ما تذكرنا ما قاله هومر رغم تعبيره عنه بمفردات أخرى.

تظاهر بالنوم عندما استيقظت زوجته. شعر بقبلتها على جبينه، بلطف شديد، كأنها لم ترد أن توقظه مما حسبته نوماً عميقاً، ربما فكرت لنفسها، يا للرجل المسكين، نام متأخراً بعد أن سهر يدرس حالة ذلك الرجل المسكين الأعمى، غير العادية. وحيداً، وكأنه على وشك الاختناق ببطء، بغيمة كثيفة تجثم بثقلها على صدره وتدخل منخريه، تعميه من الداخل، أنَّ أنيناً قصيراً، ولم يستطع أن يغالب دمعتين طفرتا من عينيه. ربما كانتا بيضاوين، فكّر لنفسه، وسالتا إلى فوديه. الآن فقط يستطيع أن يفهم مخاوف مرضاه عندما كانوا يقولون له، دكتور، أشعر أني أفقد بصري. وصلته في غرفة النوم بعض الضجة المنزلية، يمكن أن تدخل زوجته في أي لحظة لترى إذا ما كان لا يزال نائماً، فقد حان وقت

ذهابهما إلى المشفى. نهض بحذرٍ، تلمّس بيديه بحثاً عن مئزره ولبسه، ثم دخل الحمام ليتبوّل. التفت إلى حيث يعرف أن المرآة موجودة، ولم يتساءل هذه المرة، لم يقل، ماذا يجري. هناك آلاف الأسباب لتوقف الدماغ البشري عن العمل. مدّ يديه ليتلمّس المرآة، وكان يعرف أن صورته فيها تراقبه. بوسع صورته أن تراه، لكنه لا يستطيع أن يراها. سمع زوجته تدخل الحمّام. آه، لقد استيقظت. نعم. شعر بها بقربه. صباح الخير، حبيبي.مازالا يتخاطبان بكلمات عاطفية بعد كل سنوات زواجهما هذه. عندئذٍ قال، وكأنهما يمثلان في مسرحية وحان دوره في الكلام، أشك في أنه خير، إذ أن هناك خللاً ما في بصري -لم تهتم إلاّ بالقسم الأخير من العبارة- دعني أرى، قالت، وتفحصت عينيه عن قرب. لا أستطيع أن أرى شيئا، وهذه بوضوح عبارة مقتبسة وليست من قاموسها، فهو مَنْ كان يجب أن يقولها، غير أنه ببساطة قال، لا أستطيع أن أرى، أعتقد أني التقطت العدوى من المريض الذي فحصته أمس.

مع الألفة ومرور الوقت تعلمت زوجة الطبيب شيئاً ما عن الطب. وفيما يخص هذه الحالة، وبحكم قربها الدائم من زوجها فقد تعلمت ما يكفي لتعرف أن العمى ليس مرضا ينتقل بالعدوى مثل الوباء. لا ينتقل بمجرد أن ينظر الأعمى إلى آخر بصير. العمى مسألة خاصة بين الفرد وعينيه اللتين خلق بهما. في أيّ حال، فالطبيب ملزم بأن يعرف ما يقول، ولذلك يجري تدريبه التخصصي في مدارس طبيّة. وإذا كان هذا الطبيب هنا، إضافة إلى تصريحه بأنه أعمى، يعترف أنه التقط العدوى، فمن تكون زوجته لتشكّك فيما يقول، مهما كثرت معارفها عن الطب.

بناءً عليه، من الواضح أن المرأة المسكينة التي واجهت دليله غير القابل للدحض، يجب أن تتصرف كأي زوجة عادية وتُظهر أمارات الأسى الطبيعية. وماذا سنفعل الآن، سألته وهي تبكي. نحذّر المرجعيات الطبية. الوزارة. هذا أول ما يتوجب علينا فعله، فإنْ تبيّن أنه وباء فيجب اتخاذ الإجراءات اللازمة. لكن ما من أحد سمع عن وباء العمى. ألحّت زوجته، متلهفّةً للتمسّك ببارقة الأمل الأخيرة هذه. وما من أحد عمي بدون أسباب ظاهرة تفسّر الحالة، وعلى الأقل توجد الآن حالتان. وما أن فرغ من نطق عبارته هذه حتى تغيّرت نبرته. دفع زوجته بعنف ليبعدها عنه على الأغلب، ابقي بعيدة، لا تقتربي مني، قد أُعديك، ثم ضرب جبهته بقبضته، يا للحماقة، يا للحماقة، أي طبيب أبله أنا، لماذا لم أفكر في هذا من قبل، لقد أمضينا كل الليلة معا، كان ينبغي أن أنام في غرفة المكتب، وأغلق الباب على نفسي. رغم ذلك أرجوك لا تفعل أشياء كهذه، فلا مفرّ من المحتوم. تعال، دعني أحضّر لك فطوراً. اتركيني، اتركيني. كلا لن أتركك، صرخت زوجته، ما الذي تريده، أن تمشي وتتعثر وترتطم بالأثاث، تبحث عن التلفون بلا عينين تريان الأرقام التي تبحث عنها في دليل الهاتف، بينما أقف أنا بهدوء أراقب هذا المشهد، أتقوقع في شرنقةٍ خشية التقاط العدوى. أمسكته من ذراعه بقوّة وقالت تعال معي، حبيبي.

كان الوقت لا يزال مبكراً عندما فرغ الدكتور من فطوره، وبوسعنا تخيّل المتعة التي تناول بها القهوة والتوست اللذين أصرت زوجته على اعدادهما له. ما زال الوقت مبكراً جداً على تواجد الناس، الذين سيخبرهم بالأمر، في مكاتبهم. فالمنطق والضرورة يقتضيان أن يقدّم

تقريره عما حدث مباشرة وبأسرع ما يمكن إلى شخصٍ ما متنفّذ في وزارة الصحة. لكنه غيّر رأيه بسرعة عندما فكرأنه سيقدّم نفسه كطبيب لديه معلومة مهمة وعاجلة يريد إبلاغها، وهذا غير كافٍ لاقناع الموظف الأدنى مرتبةً الذي سيتكلم إليه. أراد الرجل أن يعرف تفاصيل أكثر قبل أن يوصله إلى مسؤوله الأعلى والمباشر.. وكان واضحا أن طبيباً على أدنى قدر من المسؤولية لن يعلن عن تفشي وباء عمى إلى أول موظف يقابله، وإلا لتسبب بحالة ذعر فوريّة. أجابه الموظف على الجانب الآخر من التلفون، قلت لي إنك طبيب، فإن أردتني أن أصدقك، طبعاً أنا أصدقك، لكن لدي معلومات تمنعني من إيصالك إلى الأعلى ما لم تخبرني بالأمر الذي تودّ مناقشته. إنها مسألة سريّة. المسائل السريّة لا تناقش في التلفون، فالأفضل أن تحضر إلينا شخصياً. لا أستطيع مغادرة المنزل. تقصد أنك مريض، نعم أنا مريض، قال الطبيب الأعمى بعد صمت. في هذه الحالة عليك أن تستشير طبيباً، علّق الموظف ساخراً، ومسروراً بفطنته، وأغلق التلفون.

كانت وقاحة الرجل كصفعة، واستغرق الطبيب بضع دقائق كي يستعيد هدوءه بما يكفي ليخبر زوجته عن الفظاظة التي عُومِل بها. بعدئذٍ، وكأنه اكتشف للتوّ شيئا ما كان يجب أن يعرفه منذ فترة طويلة، غمغَم، هذه هي الطينة التي جُبلنا منها، نصفها خبث ونصفها استهتارٌ. أوشك أن يسأل متشككا ماذا الآن، عندما لاحظ أنه كان يضيّع وقته، وأن الطريقة الوحيدة لإيصال المعلومة إلى الجهات المعنية وعبر طريق آمنة ستكون عبر مدير المشفى الذي يعمل فيه. يكلّمه كلام طبيب الى طبيب بدون وساطة عامل التلفون، دعه يتولى المسؤولية، يحمل النظام

www.9ofy.com

البيروقراطي على القيام بواجبه. تلفتت زوجته، فهي تحفظ رقم تلفون المشفى غيباً. عرّف الطبيب بنفسه عندما أجابته عاملة التلفون، بعدئذٍ قال بسرعة، أنا بخير شكراً لك، لابد أنها سألته كيف حالك، دكتور. هذا ما نقوله عندما لا نريد لعب دور الضعف الجسدي، نقول إننا بخير، حتى لو كنا نحتضر. وهذا متعارف عليه بأنه استجماع للشجاعة، ظاهرة لم تعرف إلا لدى البشر. على الجهة الأخرى من التلفون سأله المدير، حسن ما الأمر. سأله الطبيب إذا ما كان وحده، إن كان هناك مَنْ يسمعهما. لا تقلق من ناحية عاملة التلفون، فلديها أشياء أهم من الاستماع إلى محادثةٍ عن طب العيون، إضافة إلى أنها لا تهتمُّ إلا بالأمراض النسائية. كان تقرير الطبيب موجزاً وكاملاً، دون كلمات مطنبة أو زائدة أو مسهبة. أوضح الأمر في سياق تشخيصٍ سريري أكاديمي أدهش مدير المشفى إلى حدٍّ ما. أأنت أعمى حقيقة، سأله المدير. أعمى تماماً. على أيِّ حالٍ، قد يكون الأمر مجرّد مصادفة، فمن غير الممكن حقيقة، بالمعنى الدقيق للكلمة، وجود عدوى كهذه أياً كانت. أوافقك الرأي إذ لا وجود لدليل على عدوى، لكن الأمر لم يكن مجرّد إصابتنا بالعمى أنا وهو وكلّ منا في بيته، بدون أن نلتقي معاً. فقد تبيّن في العيادة أن الرجل أعمى، وأنا عَميتُ بعده بعدة ساعات. كيف بوسعنا الوصول إلى هذا الرجل. إن اسمه وعنوانه موجودان في ملفّه، في عيادتي. سأرسل شخصا ما إلى هناك في الحال. نعم، سأرسل طبيباً. بالطبع طبيباً زميلاً. ألا تعتقد بضرورة إبلاغ الوزارة بالأمر. إن الأمر سابق لأوانه حالياً، فكّر في الهلع الجماعي الذي سيثيره خبرٌ مرعبٌ كهذا. العمى غير مُعدٍ، والموت غير مُعدٍ، بيد أننا نموت جميعاً. حسن،

ابقَ أنت في البيت ريثما أعالج الأمر، بعدئذٍ سأرسل شخصا ما لإحضارك، أودّ أن أفحصك. لا تنسَ أني عميت لأني فحصت شخصا أعمى. لا يمكنك الجزم بذلك. على الأقل توجد لدي هنا إشارةٌ ولو ضئيلة الى السبب والأثر. لاشكّ، لكن مازال الوقت مبكراً على الاستنتاجات، إذ أن حالتين منفصلتين لا تشكلان علاقةً إحصائية. هذا إن لم يكن هناك، وفي هذه اللحظة، آخرون غيرنا. إني أتفهم حالتك العقلية لكن يجب أن نتجنب الاستنتاجات الكئيبة التي قد يتبيّن أنها عديمةُ الصلة بالأمر. شكراً جزيلاً. سأكلمك في أقرب فرصة. إلى لقاءٍ.

بعد نصف ساعة، بعد أن حلق لحيته بصعوبة وبمساعدة زوجته، رنَّ جرس التلفون. كان مدير المشفى ثانية، إلا أن صوته بدا مختلفاً هذه المرّة. لدينا هنا طفل عمي فجأة، إنه يرى كل شيء أبيض، تقول والدته إنه كان في عيادتك أمس. إذا لم أكن مخطئاً فهذا الطفل مصاب بحولٍ في عينه اليسرى. نعم. إنه هو إذاً دون شك. بدأت أقلق فالحالة تزداد خطورة حقاً. ما رأيك بإبلاغ الوزارة. نعم، بالطبع. سأستشير هيئة إدارة المشفى. بعد نحوٍ من ثلاث ساعات، بينما كان هو وزوجته يتناولان الغداء صامتين رن جرس التلفون من جديد. نهضت زوجته لتردّ، وعادت مسرعةً. يجب أن تردّ أنتَ على المكالمة، إنها من الوزارة. ساعدته على النهوض، قادته إلى غرفة مكتبه وناولته سماعة التلفون. كانت المكالمة قصيرةً. أرادت الوزارة أن تعرف هوية المرضى الذين كانوا في عيادته يوم أمس. أجاب الطبيب بأن الملفات الطبية في عيادته تحتوي كلّ المعلومات المطلوبة، الاسم، العمر، الوضع العائلي، المهنة، عنوان المنزل، واقترح أن يرافق مندوب الوزارة إلى العيادة. لا ضرورة لذلك، كانت

اللهجة فظة على الجهة الأخرى من التلفون. ونُقل التلفون إلى شخص آخر، إذ أنه سمع صوتاً مختلفاً يكلّمه الآن، طاب مساؤك، الوزير يكلمك، أريد أن أشكرك باسم الحكومة، على حماستك. أنا واثقٌ أن تصرفك العاجل المشكور، سيساعدنا على محاصرة وضبط الحالة، وأرجو أن تلزم منزلك ريثما نقوم نحن بذلك. نُطقت الكلمات الأخيرة بنبرة رسمية مهذّبة، لكنها أوحت له كأنه قد تلقى أمراً. نعم، سعادة الوزير، ردّ الطبيب، إلا أن الشخص على الجانب الآخر من التلفون أقفل الخط.

بعد عدّة دقائق رنّ الجرسُ ثانيةً. إنه مدير المشفى، كان يتكلم بعصبيةٍ وكلماته مشوشة، لقد أبلغت للتو أن الشرطة قد أفادت عن حالتي عمى مفاجئ. هل هما شرطيان. كلا، رجل وامرأة. وجدوا الرجل في الشارع يصرخ أنه عَميَ، والمرأة عميت في الفندق، يبدو أنها كانت في سرير رجلٍ ما. يجب أن تتأكّد إذا ما كانا من مرضاي، هل تعرف اسميهما. لم تُذكر أسماء، تلفنوا لي من الوزارة، وسوف يذهبون إلى عيادتك لإحضار الملفّات. يا له من عمل معقد. أأنت مَنْ يقول لي هذا. وضع الطبيب سماعة التلفون في مكانها، ورفع يديه إلى عينيه وغطاهما وكأنه يحميهما من شيء ما أسوأ قد يحدث. بعدئذٍ قال بصوت واهن، أنا متعب. حاول أن تنام قليلا، سأوصلك الى السرير، قالت زوجته. لا فائدة، لن أستطيع النوم، إضافة إلى أن النهار لم ينقضِ بعد، وقد يحدثُ شيءٌ ما.

كانت الساعة تقارب السادسة عندما رنّ جرس التلفون للمرة الأخيرة. رفع الطبيب، الذي كان يجلس إلى جوار السماعة، نعم، هو المتكلّم، قال وأصغى بانتباه إلى ما كان يُقال له، واكتفى بهزّ رأسه قليلاً

قبل أن يعيد السماعة إلى مكانها. مَنْ كان المتكلم، سألت زوجته. الوزارة، ستأتي سيارة إسعاف لاصطحابي خلال نصف الساعة القادمة. أذلك ما توقعت حدوثه. نعم، إلى هذا الحد أو ذاك. إلى أين سيأخذونك. لا أعرف، المفترض الى مشفى. سأوضب لك حقيبةً. ضعي فيها بعض الملابس، الأشياء الضرورية، فأنا ذاهب في رحلة. رحلة لا نعرف نوعيتها. قادته بلطف إلى غرفة النوم، أجلسته على السرير، اجلس هنا بهدوء، وأنا سأوضب كل شيء. كان يسمعها تتنقل في الغرفة، تفتح أدراجا وخزائنْ وتغلقها، تخرج منها ثيابا وتضعها في الحقيبة على الأرض، إلا أن ما لم يستطع رؤيته هو أنها، إضافة إلى ثيابه، وضعت في الحقيبة عدداً من البلوزات والتنانير، زوجاً من السراويل الفضفاضة، فستانا، بعض الأحذية النسائية. خطر في ذهنه بشكل مبهم أنه لن يحتاج إلى كل هذه الملابس، لكنه لم يقل شيئاً، لأنه لم يكن هذا وقت الاهتمام بتفاهات كهذه. سمع طقة الأقفال، وبعدئذٍ زوجته تقول، انتهيت. نحن جاهزان بانتظار الإسعاف الآن. حملت الحقيبة إلى الباب، رافضةً مساعدته عندما قال لها، دعيني أساعدك، فمازلت قادراً على عمل كهذا، رغم كل شيء، فلست عديم النفع. بعدئذ توجّها إلى غرفة الجلوس ليجلسا على الأريكة وينتظرا. كانا متشابكي الأيدي عندما قال مَنْ يعرف كم سيطول فراقنا، فردّت عليه، لا تدعْ ذلك يشغلنّك.

انتظرا قرابة الساعة. عندما رنَّ جرس الباب، نهضت وفتحته، لكنها لم تجد أحداً على المصطبة. تكلمت عبرالإنترفون. حسن سينزل حالاً، قالت. التفتت إلى زوجها وأخبرته أن لديهم تعليمات صارمة بعدم

www.9ofy.com

الصعود إلى الشقة، يبدو أن كل الوزارة خائفة. دعنا ننزل. نزلا في المصعد، ساعدت زوجها على هبوط الدرجات الأخيرة للوصول إلى سيارة الإسعاف ثم عادت لتحضر الحقيبة، رفعتها إلى السيارة بمفردها ووضعتها داخلها. أخيراً صعدت وجلست بجوار زوجها. استدار سائق سيارة الإسعاف ليحتج، الأوامر لدي أن أصطحبه هو بمفرده، لذلك أطلب منكِ النزولَ من السيارة. ردّت عليه المرأة بهدوءٍ، يجب أن تصطحبني معه، لأني فقدتُ بصري الآن أيضاً.

كان الوزير نفسه صاحب الاقتراح الموفّق من أي زاوية نظرنا إليه. لا نقول إنها فكرة متكاملة، من وجهتي النظر الإنسانية الصرف لهذه الحالة والتعقيدات الاجتماعية والنتائج السياسية المترتبة عليها. إذ أنه ريثما تعرف مسبباته، أو، تُعْلَم أسباب هذا المرض، إن استخدمنا المصطلحات المنابة، فقد اصطلح على تسمية هذا العمى كريه الوقع على الأذن، بالشر الأبيض، وشكراً لمخيّلة مساعد الوزير التي ألهمته هذه التسمية، وريثما يكتشف علاج، أو دواء له، وربما لقاح قد يمنع ظهور حالات مشابهة مستقبلاً، فيجب عزل كل من عمي، وكل أولئك الذين كانوا قريبين منهم جسدياً، في مكان ناءٍ لتفادي حالات عدوى لاحقة ما أن تحدث حتى تتكاثر إلى هذا الحد أو ذاك وفقاً لما يعرف رياضياً بالنسبة المركّبة. هذا ما خلص إليه الوزير وفقاً لتجربته القديمة، الموروثة من زمن الكوليرا والحمى الصفراء، عندما كانت تحتجز السفن الحاملة أو المشتبه بحملها العدوى. في عرض البحر

لمدة أربعين يوما. باختصارٍ وضمن قدرة العامّة على الفهم، كان الاقتراح بأن يوضع كل أولئك المصابين في محجر صحي، حتى إشعار آخر. هذه العبارة، حتى إشعار آخر، الواضحة ظاهريا، المبهمة في الواقع، قد جرت على لسان الوزير لا شعورياً، بما أنه لم يستطع أن يفكّر بغيرها، وأوضح فيما بعد، إني قصدت أن الحجز قد يدوم أربعين يوما، أربعين أسبوعا، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فالمهم هوبقاؤهم داخل المحجر الصحي. يجب أن نقرر الآن أين نحجرهم، يا سعادة الوزير، قال رئيس اللجنة اللوجستية التي شُكلت على جناح السرعة وانيطت بها مسؤولية نقل، عزل، ومراقبة المرضى. أراد الوزير أن يعرف ما هي التسهيلات المتوفرة. لدينا مشفى أمراض عقلية فارغ ريثما نقرّر ما نفعل به، وهناك عدة مواقع عسكرية لم تعد مستعملةً بعد إعادة هيكلة الجيش مؤخراً، ومبنى خاص بالشؤون التجارية قيد الإنجاز، وهناك أخيرا، رغم أن لا أحد قادراً على تفسير السبب، سوق خدمة ذاتية على وشك أن يُصفى. أيّ من المباني التي ذكرت هو الأنسب لهدفنا، برأيك. المواقع العسكرية هي الأكثر ضمانا، لكنْ، وبشكل طبيعي هناك، من ناحية ثانية، مشكلةُ اتساع المكان التي يرجّح أن تزيد في صعوبة وتكلفة مراقبة هؤلاء المحتجزين. نعم أستطيع تخيّل ذلك. بخصوص سوق الخدمة الذاتية، من الأرجح أن نواجه بعض العقبات القانونية المختلفة، أما بناء الشؤون التجارية فرأيي أن نتجاهله تماما، يا سعادة الوزير. لماذا. لأن وزارة الصناعة لن تحبّذ استثمار ملايينها في هذا المشروع. لم يبق لنا إذن إلا مشفى الأمراض العقلية. إضافة إلى كل المظاهر المناسبة والتسهيلات التي يوفرها لنا وعلاوة على سوره الخارجي فإنه مؤلف من جناحين

منفصلين، نضع في أحدهما أولئك العميان، وفي الثاني أولئك المشتبه بحملهم العدوى، إضافة إلى الردهة الفاصلة بينهما والتي يمكن اعتبارها، إن جاز التعبير، منطقةً محايدةً يعبرها أولئك الذين يكتمل عماهم فينضمون إلى العميان. لكن قد تواجهنا مشكلةٌ واحدةٌ. ما هي، سعادة الوزير. قد نضطر إلى وضع طاقمٍ يشرف على الانتقال بين الجناحين، وأشك في قدرتنا على إيجاد المتطوّعين. إني أشك في ضرورة ذلك، سعادة الوزير. لماذا. لأنه عندما سيعمى أي حامل للعدوى، كما سيحدث بشكل طبيعي عاجلاً أو آجلاً، ثق، سعادة الوزير أن أولئك الآخرين الذين مازالوا مبصرين سيطردونه إلى الجناح الآخر فوراً. أنت محق. كما أنهم لن يسمحوا لأي أعمى بدخول جناحهم إذا ما خطر له فجأةً تغييرُ مكانه. تفكيرٌ جيدٌ، شكراً لك. يمكنني إذن، سعادة الوزير، إصدار أوامر التنفيذ. نعم، أنت مُفَوَّض.

كان عملُ اللجنة سريعا وفعالاً. فقبل حلول الليل جرى تجميع كلّ من عمي، إضافة إلى عدد كبيرٍ من الناس الذين افترض أنهم يحملون العدوى، على الأقل أولئك الذين أمكنت معرفة أسمائهم وعناوينهم، في حملة بحث سريعة شملت أماكن سكن وعمل أولئك الذين عموا. كان الطبيب وزوجته أول مَنْ تم نقلهم إلى مشفى الأمراض العقلية الفارغ، وكان هناك جنود يقومون بحراسة المشفى. فُتحت البوابة الرئيسة بما يسمح لهما بالمرور وأُغلقت ثانية بسرعة. كان هناك درابزون، هو حبلٌ ثخين يمتد من البوابة إلى المدخل الرئيسي للمشفى. تحركا إلى اليمين قليلا وستجدان حبلا، أمسكا به وسيرا بمحاذاته مباشرة فيوصلكما إلى ست درجات، قال لهما جندي. وعندما تدخلان سيتفرّع الحبل إلى فرعين،

www.9ofy.com

واحد إلى اليسار، والآخر إلى اليمين، صاح بهما الرقيب، اتّجها إلى اليمين. قادت المرأة زوجها، وهي تجرُّ الحقيبة إلى الغرفة الأقرب إلى المدخل . كانت الغرفة طويلة مثل جناح في مشفى من الطراز القديم، فيها صفّان من الأسرّة طُليت باللون الرمادي، رغم أن طلاءها قد بدأ يتقشر منذ وقت طويل. الأغطية، الملاءات والبطانيات، كلها رمادية أيضا. قادت المرأة زوجها إلى آخر الغرفة، أجلسته على أحد الأسرّة، وقالت له، ابق هنا، أنا ذاهبة لاستطلاع المكان. توجد غرف أخرى، ممرات طويلة وضيّقة، غرف أصغر لابد أنها كانت خاصة بالأطباء، مراحيض قذرة، مطبخ مازالت تفوح منه رائحة طبخٍ نتنة، حجرة طعام فسيحة فيها طاولات سطوحها من الزنك، ثلاث زنازين بطول ستة أقدام محشوة الأرضية والجدران أما بقية الزنازين فقد فُرشت بالفلين. خلف المبنى يوجد فناء خرب، فيه أشجار مهملة، تبدو جذوعها وكأنها سلخت. عادت الزوجة إلى الداخل. وجدت في خزانة نصف مفتوحة سترة مجانين. عندما عادت إلى زوجها سألته، أيمكنك أن تتخيّل أين وضعونا. كلا. كانت على وشك أن تضيف، في مشفى مجانين. غير أنه سبقها وقال، أنت لست عمياء، لا يمكنني السماح لك بالبقاء هنا. نعم، أنت محق فأنا لست عمياء. سأطلب منهم أن يعيدوك إلى البيت إذن، وسأبلغهم أنك كذبت عليهم كي تبقي معي. لا فائدة من هذا، فلن يستطيعوا سماعك من هذا البعد، حتى إن سمعوك فلن يهتموا. لكنك تبصرين. الآن، نعم أبصر، لكني بالتأكيد سأعمى في يوم قريب، وربما في أي لحظة من الآن. أرجوك عودي إلى البيت. لا تصر على ذلك، إضافة إلى أني أراهنك أن الجنود لن يسمحوا لي بتجاوز الدرجات الست. لا أستطيع

إرغامكِ. كلا، حبيبي، لا تستطيع، فأنا هنا لأساعدك أنت والآخرين الذين قد يجلبونهم، لكن لا تقل لهم أني أبصر. أيُّ آخرين تقصدين. لا أظنك تعتقد جازما بأننا سنكون هنا بمفردنا. هذا جنون. ماذا توقعت، فنحن في مشفى مجانين.

وصل عميان آخرون. اعتقلوا من بيوتهم الواحد بعد الآخر، أوّلهم الرجل الذي كان يقود السيارة، ثم الذي سرقها، الفتاة ذات النظارة السوداء، والطفل الأحول الذي لحقوا به إلى المشفى حيث أخذته والدته. لم ترافقه والدته إلى هنا، كانت تفتقد براعة زوجة الطبيب التي ادّعت العمى وهي مبصرة. كانت والدته إنسانة بسيطة، غير قادرةٍ على الكذب حتى لو كان في صالحها. دخلوا الجناح بخطا متعثرة، يتعلقون بالهواء، إذ لا يوجد هنا حبل يسترشدون به، وعليهم أن يتعلّموا من التجربة المؤلمة. كان الطفل يبكي، ينادي أمّه. انبرت الفتاة ذات النظارة السوداء تحاول مواساته، إنها قادمة، إنها قادمة، كانت تقول له. وبما أنها تلبس نظارة سوداء فقد كانت مثلهم عمياء وليست عمياء. إذ بينما كان الآخرون ينقلون عيونهم هنا وهناك بدون أن يروا شيئا، فقد كانت الفتاة ولأنها تلبس تلك النظارة السوداء، وتقول للطفل، إنها قادمة، إنها قادمة، فبدا الأمر حقيقةً وكأن بوسعها رؤية والدة الطفل البائس تدخل عبر الباب. انحنت زوجة الطبيب وهمست في أذن زوجها، لقد وصل أربعة آخرون. امرأة، رجلان وطفل. ما هو شكل الرجلين، سأل الطبيب بصوت خفيض. وصفتهما له. فقال، الثاني لا أعرفه، أما الأول فهو الأعمى الذي جاءني إلى العيادة. أردفت، الطفل أحول، والفتاة تلبس نظارة سوداء، تبدو جذابة. كلاهما كان في عيادتي. بسبب جلبتهم وهم

يحاولون البحث عن مكان يشعرون فيه بالأمان، لم يستطع القادمون الجدد سماع هذه المحادثة. لابد أنهم اعتقدوا أن لا وجود لمن سواهم هنا، ولم تمضِ على عماهم فترة كافية لتقوى لديهم حاسة السمع أكثر من الحد الطبيعي. أخيراً، وكأنهم وصلوا إلى استنتاج بأن لا فائدة من استبدال اليقين بالشك، جلس كلٌّ منهم على أول سرير تعثّر به. بالنتيجة فقد جلس الرجلان على سريرين متجاورين بدون أن يعرفا ذلك. تابعت الفتاة بصوت خفيض مواساة الطفل، لا تبكِ سترَ أن أمك لن تتأخر كثيراً. خيم صمت عندئذ تكلمت زوجة الطبيب بصوت يستطيع سماعه حتى مَنْ يجلس بعيداً عند باب الغرفة. نحن اثنان هنا، فكم واحداً أنتم. أرعب الصوت غير المتوقّع الواصلين الجدد. بقي الرجلان صامتين، بينما أجابت الفتاة، أعتقد أننا أربعة. أنا والطفل الصغير هذا. مَنْ أيضا. لماذا لا يتكلم الآخران، سألت زوجة الطبيب. أنا هنا، غمغم صوت رجل، وكأنه لا يقوى على لفظ غير هذه الكلمة وبصعوبة. وكذلك أنا، زمجر صوت ذكوري آخر باشمئزاز واضح. فكرت زوجة الطبيب لنفسها، إنهم يتصرفون كأنهم خائفون من أن يعرف أحدهم الآخر. راقبتهم ينتفضون، يتوترون، رقابهم متلعة وكأنهم يتنشقون شيئا ما، وتعابيرهم كلها متشابهة، متوعّدة وخائفة في الوقت نفسه، إلا أن خوف أحدهم لا يشبه خوفَ الآخر. والشيءُ نفسهُ يصحّ على توعّداتهم. ماذا يمكن أن يكون فيما بينهم، تساءلت لنفسها.

في تلك اللحظة، ومن مكبّر الصوت المعلّق فوق الباب الذي دخلوا منه، علا صوت أجشّ توحي نبرته أنه تعوّد إصدار الأوامر. كرّر كلمةَ، انتباه، ثلاث مرات، بعدئذٍ تابع، تبدي الحكومة أسفها لاضطرارها إلى

القيام بالسرعة القصوى بما تعدّه واجبها الحق، لحماية الشعب بكل الوسائل الممكنة في هذه الأزمة الحالية التي تبيّن لها أنها تحمل مظاهر تفشي وباء عمى أبيض، يُعرف مؤقتاً بالمرض الأبيض. هذا وإننا نعوّل على الروح الشعبية وتعاون كل المواطنين لاستئصال أي عدوى أخرى، مفترضين أننا في مواجهة مرض معدٍ لا مجرّد سلسلة مصادفات عصيّة على الفهم. لذلك، فإن قرار تجميع مَنْ أصيبوا بالمرض في أماكن متجاورة لكنها منفصلة عن أولئك الذين كانوا على احتكاك معهم، لم يكن ارتجالياً. فالحكومة تعي جيداً مسؤولياتها وتأمل من أولئك الذين تخاطبهم الآن، كمواطنين لا شك في سلامة مواطنيتهم، وحسّ المسؤولية لديهم، أن يتذكروا أن هذه العزلة التي وضعوا فيها تمثّل، وفوق كل اعتبارات شخصية، تعاضداً مع باقي مجتمع الأمة. لذلك نطلب من الجميع الإصغاء بانتباه إلى التعليمات التالية. أولاً، لن تطفأ المصابيح ليل نهار، ولا فائدة من محاولة إطفائها لأن مفاتيح الكهرباء في كل المبنى معطلةٌ. ثانياً، إن مغادرة المبنى بدون إذنٍ يعني الموت الفوري. ثالثاً، يوجد تلفون في كل جناح يُستخدم فقط لطلب الحاجات الجديدة الضرورية للصحة والنظافة. رابعاً، إن المحتجزين مسؤولون عن غسل ثيابهم بأنفسهم. خامساً، نقترح انتخاب ممثلين عن كلّ جناحٍ، وهذا مجرّد اقتراحٍ لا أمر، فيجب أن ينظّم المحتجزون أنفسهم بالشكل الذي يناسبهم، شريطة أن يذعنوا للتعليمات السابقة واللاحقة. سادساً، ستُوضع صناديق الطعام ثلاث مرات يوميا أمام الباب الرئيسي، على اليمين وعلى اليسار، مقسّمة بالتساوي للمرضى ولأولئك المشتبه بحملهم العدوى. سابعاً، يجب إحراق كل المخلّفات، هذا لا يشمل الطعام

www.9ofy.com

فقط، بل الصناديق، الأطباق والسكاكين المصنوعة من مواد قابلة للاحتراق. ثامناً، يجب أن تجري عملية الحرق في فناء المبنى أو في ساحة الرياضة. تاسعاً، إن المحتجزين مسؤولون عن أي ضرر ينتج عن عمليات الاحتراق هذه. عاشراً، سواء فقدوا السيطرة على الحرائق، عمدا أو عن غير عمد، فلن يتدخل رجال الإطفاء. الحادي عشر، بالمثل، لا يفكرنّ المحتجزون بالاعتماد على أي تدخل خارجي في حال تفشي أي مرض، ولا في حال حدوث فوضى أو اعتداءات. الثاني عشر، في حالات الوفاة، مهما كان السبب، على المرضى دفن الجثث في الفناء بدون أيّ مساعدة خارجية. الثالث عشر، يجب أن يتم التواصل بين نزلاء جناح المرضى ونزلاء جناح المشتبه بحملهم العدوى، في ردهة البناء المركزية الفاصلة بين الجناحين. الرابع عشر، إذا ما عمي أحد أولئك المشتبه بحملهم العدوى فسوف يُنقل مباشرة إلى الجناح الآخر. الخامس عشر، ستُعاد هذه التعليمات يوميا في التوقيت نفسه من أجل القادمين الجدد. إن الحكومة تتوقع من الجميع رجالا ونساء القيام بواجبهم. تصبحون على خير.

كان بالإمكان سماع صوت الطفل بوضوح، بعد الصمت الذي تلا إصدار التعليمات، أريد أمي، إلا أن كلماته كانت خاليةً من أيّ شحنةٍ تعبيريةٍ، كلمات تصدر عن آلة إعادة اتوماتيكية سُجِّلت عليها عبارة وقد علقت الاسطوانة الآن وراحت تكرر العبارة ذاتها، في الوقت غير المناسب. قال الطبيب، إن الأوامر التي تلقيناها لا تترك مجالاً للشك في أننا عُزلنا، وقد تفوق عزلتنا عزلة أي شخص آخر ودون أي أمل في الخروج من هذا المكان حتى يوجد علاج لهذا المرض. إني أعرف صوتك،

قالت الفتاة ذات النظارة السوداء. أنا طبيب اختصاصي عيون. لا بد أنك الطبيب الذي فحصني أمس، إني أعرف صوتك. نعم، ومَنْ أنتِ. أنا كنت أعاني من التهاب ملتحمة وأعتقد أنه لم يشف بعد، لكن الآن، وبما أني عمياء تماما، فلم يعد الأمر مهماً. والطفل الذي معك. ليس طفلي. ليس لدي أطفال. لقد فحصت أمس طفلاً أحول، أهو أنت، سأل الطبيب. نعم، أنا، قال الطفل بنبرة مستاءة، كشخص يفضّل عدم ذكر عيوبه الجسدية أمام الآخرين. وبترجيح عقلي لم تُذكر هذه العيوب ثانية، عيوب الفتاة، الطفل، والآخرين، لأنها كانت مجرّد وسيلة ممكنة الفهم ليعرف بعضهم بعضاً بوضوح. هل يوجد آخرون هنا، سأل الطبيب. هل الرجل الذي جاءني أمس إلى العيادة مع زوجته، موجود هنا، الرجل الذي عمي فجأة وهو يقود سيارته. ها أنذا قال الأعمى الأول. هل هناك آخر. تكلّم لو سمحت، نحن ملزمون بالعيش معاً هنا، فمن يعرف كم ستطول إقامتنا، لذلك من الضروري أن يعرف بعضنا بعضاً. غمغم سارق السيارة من بين أسنانه المطبقة، نعم، معتقداً أن هذه الـ«نعم»، كافية لإثبات وجوده. إلا أن الطبيب ألح، هذا صوت شاب نسبيا، فلست إذن المريض الكهل الذي يوجد في عينه ساد. كلا، دكتور، ليس أنا، كيف عميت. كنت أسير في الشارع عندما عميت فجأة. أوشك الطبيب أن يسأله إذا ما كان عماه أبيض أيضاً، إلا أنه أحجم عن ذلك في الوقت المناسب. فلماذا يسأله، فأيا كان جوابه، أكان عماه أبيض أم أسود، لن يغيّر في الأمر شيئاً، ولن يخرجوا من هذا المكان. مدّ يداً مترددة إلى زوجته فتلاقت يداهما في منتصف الطريق. قبّلته على وجنته. لا أحد غيرها يستطيع رؤية ذلك الجبين المتغضن، الفم المشدود،

تينك العينين الميتتين كالزجاج، المخيفتين لأنهما تبدوان مبصرتين وهما لا تبصران. سيأتي دوري، فكرت لنفسها، وربما في هذه اللحظة تماماً بدون أن تتاح لي الفرصة لأكمل ما أقول، في أي لحظة، كما حدث لهم، أو ربما سأستيقظ عمياء، أو بمجرد أن أغمض عيني لأنام، معتقدة أني غافيةٌ فحسب.

نظرت إلى العميان الأربعة الجالسين على أسرّتهم، إلى حاجاتهم التي استطاعوا المجيء بها، وهي ملقاة عند أقدامهم. الطفل معه حقيبته المدرسية، الآخرون معهم حقائب صغيرة، تبدوكأنها حزمت من أجل عطلة نهاية الأسبوع. كانت الفتاة ذات النظارة السوداء تتكلم همساً مع الطفل. في الجهة المقابلة، كان الأعمى الأول وسارق السيارة، يجلسان قريبين أحدهما من الآخر، لا يفصل بينهما سوى سرير واحد، وجهاً لوجه وبدون أن يدركا ذلك. قال الطبيب كلنا سمعنا التعليمات، فمهما حدث الآن، الشيء الوحيد الواثقون منه ألاّ أحد سيأتي لمساعدتنا، لذلك علينا أن ننظم أنفسنا بدون إبطاء، لأنه لن يطول الزمن حتى يَمتلئ هذا الجناح بالناس، هذا الجناح والجناح الآخر. كيف عرفت بوجود الجناح الآخر، سألت الفتاة. لقد استطلعنا المكان قبل أن نختار هذه الغرفة لقربها من المدخل الرئيسي، أوضحت زوجة الطبيب وهي تهصر ذراع زوجها بيدها وكأنها تدعوه للانتباه. قالت الفتاة، أعتقد من الأفضل أن تتولى تسيير أمور الجناح أنت، لأنك في نهاية المطاف طبيبٌ. وما فائدة طبيب بلا عينين وبلا دواء. لكنك تتمتع بسطوة. ابتسمت زوجة الطبيب، أعتقد أنك يجب أن تقبل. إذا قبل الآخرون بي، مع أني لا أعدّها فكرةً جيدة طبعاً. لم لا. نحن الآن هنا ستة فقط، واعتباراً من يوم غدٍ سنصبح

أكثر، إذ سيبدأ توافد الناس يوميا، ويبدو من المبالغ فيه توقع أن يكون الناس مهيّئين لقبول سلطة شخصٍ لم يختاروه، علاوة على ذلك، ليس لديه ما يقدّمه لهم مقابل قبولهم وزعمهم الدائم بالامتثال لسلطته وتعليماته. ستزداد صعوبة الحياة إذاً، وسنكون محظوظين إذا تبيّن أنها صعبة فقط، قالت الفتاة ذات النظارة السوداء، لقد أردت المنفعة فحسب، لكن بصراحة، أنت محقٌ، دكتور، سننتهي إلى أن يأخذ كلٌ منّا أموره بيديه.

إما لأنه استثير من هذه الكلمات وإمّا لأنه لم يستطع كظم غيظه أكثر، نهض أحد الرجلين فجأةً وصاح، هذا الشخص هوالمسؤول عن مصيبتنا، ولو كنت مبصراً لقتلته الآن، وأشار إلى الجهة التي خمّن أن الرجل الآخر موجود فيها. رغم أن الرجل لم يكن بعيداً عنه جداً، إلا أن حركته الدراماتيكية تلك كانت مثيرةً للضحك لأن اصبعه المتّهمة كانت تشير إلى كومودينة صغيرة بريئة. إهدأ، قالت زوجةُ الطبيب، لا أحد مسؤول عن هذا الوباء، كلنا ضحايا. لو لم أكن ذلك الشخص المهذّب، لو لم أساعده في الوصول إلى بيته، لما فقدت عيني الغاليتين. مَنْ أنت، سأل الطبيب، بيد أن المتذمّر صمت وبدا أنه قد انزعج من قول ما قاله. عندئذٍ قال الرجل الآخر، إنه مَنْ أوصلني إلى بيتي، هذا صحيح، لكن بعدئذٍ استغل وضعي وسرق سيارتي. هذا كذبٌ، لم أسرقْ شيئاً. لقد فعلتها بالتأكيد. إن كان أحد قد سرق سيارتك، فلست أنا. كان العمى جزاء صنيعي النبيل ذاك، إضافة إلى ذلك أودّ أن أعرف أين شهودك على ما تقول. لن يجدي هذا الجدال شيئاً، قالت زوجته الطبيب، فالسيارة في الخارج هنا، وكلاكما هنا، فالأفضل أن تهدأا. لا تنسيا

www.9ofy.com

أننا مجبرون على العيش معاً. عدّوني غير موجود قال الأعمى الأول، أنا ذاهب إلى غرفة أخرى، إلى أبعد ما يمكنني عن هذا النصّاب الذي استطاع أن يسرق شخصاً أعمى، ويدّعي أنه عمي بسببي، حسن ليبق أعمى، فعلى الأقل سيعرف أنه مازال هناك بعضُ العدل في هذا العالم. رفع حقيبته عن الأرض وجرّ قدميه جراً كي لا يتعثر، وتلمّس بيده الأخرى، وسار على طول الممر بين صفي الأسرّة. أين تقع الغرف الأخرى، سأل، غير أنه لم يسمع رداً، إذا ما كان هناك غرفٌ أخرى، لأنه وجد نفسه فجأةً تحت هجوم ذراعي وقدمي سارق السيارة الذي قام بتنفيذ تهديده بأفضل ما يستطيع، للانتقام من هذا الرجل الذي تسبب بكل مصائبه. تدحرجا على الأرض وسط الممر الضيق وهما يتبادلان المواقع، أعلى وأسفل، يصطدمان من حين لآخر بقوائم الأسرّة، وقد أفزعا من جديد الطفل الأحول الذي بدأ يبكي وينادي أمه. أخذت زوجة الطبيب بذراع زوجها، فقد عرفت أنها لن تستطيع بمفردها إيقافهما عن العراك. قادته إلى الخصمين الغاضبين اللذين كانا يلهثان وهما يتعاركان فوق الأرضية. وجّهت يدي زوجها، ، وتولت هي أمر الأعمى الأول الذي وجدت التعامل معه أسهل، وبجهد كبير استطاعا فصل أحدهما عن الآخر. إنكما تتصرفان بحماقة، قال الطبيب غاضبا. إن كنتما تفكران في تحويل هذا المكان إلى جحيم فأنتما في الطريق إلى ذلك، لكن تذكّرا أننا هنا معزولون ولا يسعنا توقع مساعدة من الخارج، أتسمعانني. لقد سرق سيارتي، زمجر الأعمى الأول الذي تبيّن أنه لا يجيد تسديد اللكمات. انسها، ما الفرق، قالت زوجة الطبيب، فلم تكن قادراً على سياقتها عندما اختفت. هذا صحيح، لكنها كانت ملكي وقد سرقها هذا

الوغد ولا أحد يعلم أين وضعها. الأرجح أن توجد السيارة حيث فقد هذا الشخص بصره. أنت شخص ذكي دكتور. نعم، يا سيد، لا شك في ذلك، قال اللص فجأةً. بدرت عن الأعمى الأول إيماءة كمن يحاول الإفلات من الأيدي التي تمسك به، لكنها لم تكن محاولة جادة، وكأنه أدرك أن إحساسه بمهانة الاعتداء عليه، مهماكان مقنعا، لن يعيد إليه سيارته، ولا سيارته ستعيد إليه بصره. غير أن اللص هدّده، إن كنت تعتقد أنك نجوت بهذا فأنت مخطئ. أنا سرقت سيارتك، حسناً، لكنك سرقت بصري، فمَنْ اللصُ الأكبر بيننا. يكفي، احتجّ الطبيب، جميعنا عميان هنا ولا نتّهم ولا نشير بأصبع الإدانة إلى أحد. لا تهمّني مصائب الآخرين، أجابه اللص بازدراء. إن كنت تودّ الذهاب إلى غرفة أخرى فإن زوجتي سترشدك إلى هناك، قال الطبيب للأعمى الأول، إنها تعرف المكان أفضل مني. كلا، شكراً، غيّرت رأيي، أفضّل البقاء هنا. سخر منه اللص. الولد الصغير يخاف من الوحدة فقد يظهر له بعبع. يكفي صاح الطبيب، نافد الصبر. اصغِ إلي الآن، دكتور، قال اللص، جميعنا متساوون هنا، فلا تأمرني -لا أحد يأمرك، أنا ببساطة أطلب منك أن تترك هذا المسكين في سلام. عظيم، عظيم، لكن انتبه إلى نفسك عندما تتعامل معي. فأنا شخص صعب المراس عندما يزعجه أحدٌ ما، ومن ناحيةٍ أخرى خير صديق تتمنى لقاءه، لكني أسوأ عدو يمكن أن تقابله أيضا، ثم بحركات وإيماءات عدوانية تلمس طريقه إلى سريره، دفع حقيبته تحت السرير، وأعلن، سأنام قليلا، ثم أضاف، وكأنه يحذّرهم، الأفضل أن تنظروا إلى الجهة الأخرى لأني سأخلع ملابسي. الأفضل أن تنام أنت أيضاً، قالت الفتاة ذات النظارة السوداء للطفل، ابق في هذه

الجهة وإن احتجت شيئاً في الليل نادني. أريد أن أتبوّل، قال الطفل. شعروا جميعاً، لدى سماعه، بحاجة مفاجئة وملحّة للتبول. انصبت أفكارهم إلى هذا الحد أو ذاك على السؤال التالي، كيف سنتعامل الآن مع هذه المسألة، تلمس الرجل الأعمى الأول تحت السرير بحثاً عن مبولة صغيرة، رغم أنه كان في الوقت نفسه يأمل ألا يجد واحدة لأنه سيشعر بالارتباك من التبول بوجود الآخرين، ليس لأنهم يرونه، بالطبع، لكن لعدم إمكانية إخفاء جلبة التبول، ولا الخطأ في تمييزها، ثم إن الرجال بوسعهم، على الأقل، تدبّر استراتيجية لا تستطيعها النساء -خراء، قال اللص الذي كان يجلس على سريره الآن، أين يمكننا أن نتبول في هذا المكان. انتبه إلى ألفاظك، يوجد بيننا طفلٌ.. احتجّت الفتاة ذات النظارة السوداء. بالتأكيد، يا عزيزتي، لكن إن لم تجدي مرحاضاً، فلن يطول الوقت حتى يتبوّل صغيرك ذاك في سرواله. تدخلت زوجة الطبيب، ربما أستطيع تحديد مكان المراحيض، أتذكر أني شممت رائحتها، سآتي معك قالت الفتاة ذات النظارة السوداء، وأخذت بيد الطفل. أضاف الطبيب، الأفضل أن نذهب جميعاً لنعرف الطريق كلما احتجنا للذهاب إلى هناك. أعرف ماذا يدور في رأسك، فكّر سارق السيارة لنفسه، بدون أن يجرؤ على نطقه بصوتٍ مسموعٍ، لا تريد لزوجتك أن تأخذني إلى المرحاض كلما شعرتُ بالحاجة إلى ذلك. بسبب المعنى المضمر وراء تلك الفكرة شعر اللص بالانتعاظ وفاجأه الأمر، وكأن حقيقة كونه أعمى يجب أن يتلوها بالضرورة فقدان أو تناقص الرغبة الجنسية. جيّد، فكر لنفسه، ففي نهاية المطاف، لم أفقد كل شيء. حتى بين الموتى والجرحى هناك مَنْ ينجو، وانسحب من الحديث إلى حلم يقظة. لم يوغل بعيداً، إذ أن

الطبيب كان يقول لنشكّل رتلاً، تقودنا زوجتي، ليضع كل واحد يده على كتف الآخر أمامه وبذلك نتجنب المخاطرة في الضياع. قال الأعمى الأول، أنا لن أرافقه إلى أي مكان، كان يشير بوضوح إلى النصاب الذي سرق سيارته.

سواء أكان يبحث بعضهم عن بعض أو يتجنب بعضهم بعضاً، بالكاد يستطيعون التنقل في الممر الضيق، فالأفضل إذاً أن تقودهم زوجة الطبيب وكأنها عمياء مثلهم. أخيراً انتظموا في رتل. الفتاة ذات النظارة السوداء تمسك بيد الطفل الأحول، وراءها اللص بسرواله الداخلي وقميصه، وراءه الطبيب، وآخرهم الأعمى الأول، الآمن حالياً من أي اعتداء جسدي. تقدموا ببطء شديد وكأنهم غير واثقين ممن تقودهم، يتلمسون عبثا بأيديهم الحرّة، بحثاً عن أي شيء صلب، حائط، إطار باب يستندون إليه. باصطفافه وراء الفتاة ذات النظارة السوداء استُثير اللص من العطر الذي كان يفوحه جسدها، فقرّر، متأثراً بذكرى انتعاظه، أن يُعمل يديه في شيء أفضل، فراح بإحداهما يداعب قذالها، وبالأخرى يداعب صدرها، هكذا مباشرةً وبدون تمهيد. تلوّت الفتاة لتتخلص منه، لكنه كان يقبض عليها بقوة. عندئذٍ رفعت قدمها ورفست إلى الخلف رفسةً بأقصى ما أوتيت من قوة. غاص كعب حذائها المستدق في فخذ اللص العاري مما جعله يطلق صيحةَ ألم وصدمة. ما الذي يجري، سألت زوجه الطبيب، ناظرة إلى الوراء. لقد تعثرت، قالت الفتاة ذات النظارة السوداء، ويبدو أنني آذيت الرجل الذي ورائي. كان الدم ينبجس من بين أصابع اللص الذي راح يئن ويسبّ، محاولاً التحقّق من عواقب اعتدائها. لقد تأذيتُ، هذه القحبة لا تنظر أين تضع قدمها. ولا أنت تنظر أين تضع يدك، أجابته الفتاة بقسوة. فهمت زوجة الطبيب ما قد جرى،

www.9ofy.com

تبسمت في البدء، لكن رأت بعدئذٍ كم كان الجرح بليغاً، إذ كان الدم يتدفق نازلاً فوق ساق الشيطان التعس، وليس لديهم معقم، لا يود، ولا ضماد أو لاصق طبي، لا شيء. انفرط عقد الرتل الآن. كان الطبيب يسأل، أين الجرح. هنا هنا. أين. في ساقي. ألا ترى لقد غرست هذه القحبة كعب حذائها في ساقي. لقد تعثرت ولم أستطع أن أتوازن، كررت الفتاة قبل أن تنفجر غاضبة، كان هذا الوغد يداعبني، أي نوع من النساء يحسبني. تدخلت زوجة الطبيب، هذا الجرح بحاجة إلى غسيل وتضميد في الحال. وهل يوجد ماء هنا، سأل اللص. في المطبخ، يوجد ماء في المطبخ، لكن لا حاجة لذهابنا جميعاً، سأرافقه أنا وزوجي، انتظرونا هنا، سنعود بسرعة، أريد أن أتبوّل، قال الطفل. احبسها قليلاً سنعود فوراً. كانت زوجة الطبيب تعرف أنها يجب أن تنعطف مرة إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار، ومن ثم تعبر كوريدوراً ضيّقاً يشكل زاويةً قائمةً مع المطبخ الذي يقع في نهايته. توقفت بعد عدّة خطوات متظاهرة أنها ضلّت رجعت من حيث تقدمت ثم قالت، آه، تذكرت الآن، ومن هناك توجهوا مباشرة إلى المطبخ، لا مجال لإضاعة الوقت، كان الجرح ينزف بغزارة. في البدء، كان الماء في الصنبور قذراً، واستغرق وقتاً حتى أصبح أنقى، غير أنه كان دافئاً وكريه الرائحة وكأنه قد تعفّن داخل الأنابيب، بيد أن الرجل الجريح استقبله بزفرة ارتياح. بدا الجرح سيئاً.. الآن، كيف سنضمّد هذه الساق، سألت زوجة الطبيب. كانت هناك بعض الأسمال المستعملة فيما مضى لتنظيف البلاط، تحت طاولة، لكنها بدت أسوأ من أن تستخدم كضمادة. لكن يبدو ألاّ وجود لشيءٍ آخر هنا، قالت زوجة الطبيب، وهي تتظاهر باستمرارها في البحث. لكن لا يمكن

أن أُترك هكذا، دكتور، فالنزيف لن يتوقف، ساعدني أرجوك، وسامحني إنْ كنت فظاً معك منذ قليل، أنَّ اللص. إننا نحاول مساعدتك، وإلا ما كنا هنا، قالت زوجة الطبيب ثم أمرته، اخلع قميصك، فلا خيار آخر أمامنا، غمغم الرجل الجريح بأنه يحتاج إلى قميصه، لكنه خلعه. لم تضيّع زوجة الطبيب وقتا في تحضير الضمادة التي لُفَّت حول فخذه، لفتها بقوّة، واستخدمت حمالات القميص ونهايته السفلى كرباط قوي. لا يستطيع أي شخص أعمى أن يقوم بهذه الحركات بسهولة، بيد أنها لم تكن في حالة تسمح لها بإضاعة الوقت في ادّعاءات عمى أخرى، يكفي أنها تظاهرت بإضاعة الطريق. شعر اللص أن شيئا غير عادي يجري، منطقياً، يفترض أن الطبيب، رغم أنه اختصاصي عيون، هو من يجب أن يضمد الجرح. لكن عزاءه بأن شيئاً ما يُبذل لأجله أغرق الشكوك الغامضة التي عبرت ذهنه للحظة، تحت ثقله. عادوا للانضمام إلى الآخرين وهو يعرج، وحالما وصلوا لاحظت زوجة الطبيب فوراً أن الطفل الأحول لم يستطع الاحتمال أكثر فبلل سرواله. لا الأعمى الأوّل ولا الفتاة ذات النظارة السوداء لاحظا ذلك. ومن طرف سرواله مازالت نقط البول تتساقط إلى بركة بول صغيرة تشكّلت عند إحدى قدميه. وكأن شيئاً لم يحدث، قالت زوجة الطبيب، لنذهب للبحث عن المراحيض. مدّ العميان أيديهم يبحث بعضهم عن بعض. ورغم أن الفتاة ذات النظارة السوداء عبّرت بجلاء أنها لا تود أن تسير أمام ذلك المخلوق الذي داعبها، إلا أن الرتل انتظم أخيراً، فسار اللص مكان الأعمى الأول وسار الطبيب بينهما. كان عرج اللص يزداد سوءاً، فراح يجر ساقه جراً. إذ كان الضماد المُحكم يضايقه والجرح ينبض بالألم وكأنّ قلبه قد بدّل مكانه

واستقر في قعر تجويف ما. كانت الفتاة ذات النظارة السوداء تمسك بيد الطفل الذي بقي بعيداً عنها ما أمكنه، خشية أن يكتشف أحدهم ما حدث له، مثل الطبيب الذي غمغم، توجد رائحة بول هنا. وشعرت زوجته بضرورة تأكيد انطباعه، فقالت، نعم توجد رائحة، لكنها لم تستطع أن تضيف أنها تنبعث من المراحيض لأنهم كانوا لا يزالون بعيدين عنها، ولأنها مضطرة أن تتصرف كعمياء، لم تستطع أن تقول إن الرائحة الواخزة تنبعث من سروال الطفل.

اتفقوا جميعاً، رجالا ونساء عندما وصلوا المراحيض، على أن يكون الطفل الأحول أول الداخلين ليريح نفسه. دخل الرجال الثلاثة معاً، بدون أي تمييز للضرورة أو العمر، كانت المباول عامة، لابد أن تكون كذلك في مكان كهذا، والمراحيض أيضاً. بقيت المرأتان عند الباب -يقال إن احتمالهن أكبر، لكنْ، لكل شيء حدود. وسرعان ما اقترحت زوجة الطبيب، ربما توجد مراحيض أخرى، إلا أن الفتاة ذات النظارة السوداء، قالت، بالنسبة إلي فأنا أستطيع الانتظار. وكذلك أنا ردّت المرأة الأخرى. صمتتا قليلا، ثم عاودتا الكلام. كيف عميت. مثل الآخرين، فجأة لم أعد أرى. كنتِ في المنزل. كلا. إذاً بعد أن غادرت عيادة زوجي. إلى هذا الحدّ أو ذاك. ماذا تقصدين. أقصد ليس بعد خروجي مباشرة. هل شعرت بأي ألم. كلا، لم أشعر بألم، لكن عندما فتحت عينيّ كنت عمياء. بالنسبة إليَّ فقد كان الأمر مختلفاً. ماذا تقصدين. لم تكن عيناي مغمضتين. عميت في اللحظة التي ركب فيها زوجي سيارة الإسعاف. إنه محظوظ. مَنْ. زوجك، لأنكما في هذه الحالة تستطيعان البقاء معا. وأنا محظوظة إذاً. نعم أنتِ محظوظة. أأنت

متزوجة. كلا، لست متزوجة، ولا أظنني سأتزوّج بعد الآن. لكن هذا العمى الشاذ جداً والعصيّ على التفسير العلمي لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. وافترضي أننا سنبقى هنا، نحن والآخرون، طوال حياتنا. سيكون أمراً مرعباً. عالم مليء بالعميان.. شيءٌ لا يحتمله العقل.

خرج من المراحيض الطفل الأحول أولاً، حتى إنه لم يكن بحاجة إلى دخولها أصلاً، وقد رفع كمي سرواله حتى ركبتيه، وخلع جوربيه. لقد عدت، قال الطفل، فتحركت الفتاة ذات النظارة السوداء باتجاه الصوت، ولم تنجح محاولتها الأولى والثانية، لكنها استطاعت في الثالثة أن تجد يد الطفل المتردّدة. بعد قليل ظهر الطبيب، ثم الأعمى الأول. سأل أحدهما، أين الباقون. في الحال أمسكت زوجة الطبيب بذراع زوجها، بينما لامست يد الفتاة ذات النظارةالسوداء ذراعه وأمسكت بها. لعدّة لحظات تالية لم يجد الأعمى الأول أحداً يحميه، بعدئذٍ استقرت يد شخص ما على كتفه. هل جميعنا هنا، سألت زوجة الطبيب. لقد تخلّف عنا الشخص ذو الساق المجروحة لقضاء حاجة أخرى. عندئذٍ قالت الفتاة ذات النظارة السوداء، ربما توجد هناك مراحيض أخرى، اعذروني لم أعد أحتمل. لنذهب ونبحث، قالت زوجة الطبيب، فذهبتا معاً يداً في يد. عادتا في غضون عشر دقائق، وجدتا غرفة معاينة فيها مرحاض خاص. كان اللص قد عاد وهو يشكو من برودة وألم في ساقه. عاودوا الاصطفاف في الرتل على الترتيب نفسه، وبجهد أقل من السابق ودون أحداث، عادوا إلى الغرفة. ببراعة غير منظورة، ساعدتهم زوجة الطبيب على الوصول كلاً إلى سريره الذي كان يشغله، إذ اقترحت عليهم قبل أن يدخلوا الغرفة، وكأن الأمر إثبات للذات بالنسبة إلى الجميع، أن الطريقة

www.9ofy.com

الأسهل ليجد الجميع أسرّتهم هي أن يعدّوا الأسرة بدءاً من السرير الأول عند المدخل، وأضافت، سريرانا هما الأخيران في الجهة اليمنى، التاسع عشر والعشرون. كان اللص أول من دخل الممر بين الأسرّة، عارياًتقريبا، ويرتجف من رأسه إلى قدميه، يشغله هاجس تخفيف الألم في ساقه، وهذا بالنسبة إليه سبب كاف ليُعطى الأولوية. تنقّل من سرير إلى آخر يتلمس الأرض بقدمه بحثاً عن حقيبته وعندما وجدها، قال بصوت عال، إنها هنا، وأضاف بعدئذٍ، السرير الرابع عشر. في أي جهة، سألته زوجة الطبيب. في الجهة اليسرى، أجابها واستغراب غامض يلفّ دماغه، وكأنها يجب أن تعرف ذلك بدون أن تسأله. دخل الأعمى الأول، ثانيا. كان يعرف أن سريره بعد سرير اللص بسرير وفي الجهة نفسها. لم يعد خائفاً من النوم قريبا منه، إذ أن حال ساقه سيئة جداً، وبالحكم على أنينه وتنهداته، فإنه من الصعب أن يتمكّن من الاعتداء عليه ثانية. عندما وصل سريره صاح، السرير السادس عشر، في الجهة اليسرى ثم جلس عليه بكامل ثيابه. بعدئذٍ توسلت الفتاة ذات النظارة السوداء بصوت خفيضٍ، أيمكننا البقاء قريبين منكما في الجهة الأخرى، سنشعر بأمان أكثر بقربكما. تقدموا أربعتهم معاً، وجلسوا على أسرّتهم فوراً. بعد عدة دقائق قال الطفل الأحول، أنا جائعٌ، فدمدمت الفتاة ذات النظارة السوداء، غداً، غداً سنجد شيئاً ما نأكله، نمْ الآن. بعدئذٍ فتحت حقيبة يدها، بحثت عن زجاجة القطرة التي اشترتها من الصيدلية، نزعت نظارتها، رمت رأسها إلى الوراء، أبقتْ عينيها مفتوحتين، وبيد قادت الأخرى ثم قطرت في عينيها. لم تسقط كلُّ القطرات في عينيها. إلا أن التهاب الملتحمة تراجع بسرعةٍ بعد معالجة مواظبة كهذه.

يجب أن أفتح عينيّ، قالت زوجة الطبيب لنفسها. فقد رأت عبر جفونها المغمضة، عندما استيقظت عدة مرات في أوقات مختلفة من الليل، ضوء المصابيح الباهت الذي بالكاد يضيء الغرفة، لكن بدا أنها تلاحظ الآن اختلافا، إضاءة أخرى، قد تكون بفعل بصيص أول الفجر، أو أن ذلك البحر الحليبي قد بدأ يُغرق عينيها. قالت لنفسها، سأعدّ حتى العشرة ثم أفتح عيني. كررت القول والعدّ مرتين، وفشلت في فتح عينيها. كانت تستطيع سماع تنفس زوجها العميق في السرير المجاور، وشخير شخصٍ ما. كيف حال الجرح في ساق ذلك الشخص، سألت نفسها، لكنها في اللحظة نفسها أدركت أنها لا تشفق عليه، بل أرادت التظاهر بالانشغال في شيء ما، الشيء الآخر الذي أرادته هو ألا تفتح عينيها. وفي اللحظة التالية فتحتهما، هذا ما حصل، فتحتهما دون قرار واع. دخل الضوء عبر النوافذ التي تشغل الجزء الأعلى من الجدار، من منتصفه حتى السقف الذي يفصلها عنه

مسافة لا تتجاوز عرض راحة اليد. إنه ضوء الفجر الباهت المزّرق، لست عمياء إذاً، دمدمت لنفسها، وذعرت فجأة. استوت في سريرها، ربما سمعتها الفتاة ذات النظارة السوداء في السرير المقابل. كانت نائمة على السرير التالي لذلك الملاصق للجدار، والطفل نائم أيضا. لقد فعلت مثلي، فكرت زوجة الطبيب لنفسها، أعطته المكان الأكثر أماناً. ما هذه الجدران الهشة التي نبنيها، مجرد حجارة مرصوفة في منتصف الطريق، لا أمل لنا فيها سوى أن نرى العدو يتجاوزها. عدوٌ، إن أحداً لن يهاجمنا هنا، حتى لو كنا قد قتلنا ونهبنا هناك في الخارج، فمن غير المحتمل أن يأتي أحدٌ إلى هنا لاعتقالنا.. إننا بعيدون جداً عن العالم وفي أيٍّ يوم، من الآن فصاعداً، سوف لن نعرف مَنْ نكون، حتى أننا لن نتذكر أسماءنا، ثم ما نفع الأسماء لنا، إذ أن الكلب لا يميّز كلباً آخر، أو يعرف الكلاب الأخرى من الأسماء التي تطلق عليها، فالكلب يُعرف برائحته وبالطريقة نفسها يعرف الكلاب الأخرى، الملامح ونحن هنا مثل سلالة أخرى من الكلاب، يعرف أحدنا الآخر من نباحه أوكلامه، أما بالنسبة للصفات الأخرى، الملامح، لون الأعين أو الشعر فلا أهمية لها، وكأنها ليست موجودة. ما زلت أبصر ولكن إلى متى. تغيّر الضوء قليلا. لا يمكن أن يكون الليل عائداً القهقرى، لابد أن السماء تغيّم، مؤخّرة قدوم الصباح. صدر عنينٌ من جهة سريراللص. إذا ما تجرثم الجرح، فلا شيء لدينا نعالجه به، لا علاج، ففي هذه الظروف يمكن أن يصبح أصغر حادث مأساةً حقيقيةً، وربما هذا ما ينتظرونه، أن نهلك هنا، واحداً بعد الآخر، فعندما يموت الحيوان يموت السم معه. نهضت زوجة الطبيب من سريرها، انحنت فوق زوجها، على وشك أن توقظه غير أنها

افتقدت الشجاعة لذلك وهي تعرف أنه لايزال أعمى. توجهت حافيةً بهدوء، إلى سرير اللص. عيناه مفتوحتان لا تتحركان. كيف تشعر الآن، همست زوجة الطبيب. أدار اللص وجهه ناحيةالصوت وقال، سيّيء، ساقي تؤلمني. أوشكت أن تقول له دعني أراها، لكنها أحجمت في الوقت المناسب. ما هذه الحماقة. فهو الذي نسي أنه لا يوجد هنا إلاّ العميان، تصرف من غير تفكير وأزاح البطانية، كما كان سيفعل قبل بضع ساعات، هناك في الخارج لو قال له طبيبٌ، أرني الجرح. إن أي شخص مبصر بوسعه في نصف العتمة هذه أن يرى الضماد وقد انحلّ رباطه وتبلّل بالدم، والثقب الأسود للجرح بحوافه المتورمة. أعادت زوجة الطبيب البطانية بحذر، بعدئذٍ، وبحركة سريعة رشيقة، مررت يداً فوق جبين الرجل. كانت بشرته جافة وحرارته مرتفعة. تغيّر الضوء ثانية، السماء تنجلي. عادت زوجة الطبيب إلى سريرها، إلا أنها لم تستلق فيه هذه المرة. كانت ترقب زوجها الذي يدمدم في نومه، وأشكال الآخرين الشبحية تحت البطانيات الرمادية، الجدران الوسخة، والأسرّة الفارغة بانتظار أن تمتلئ. وتمنّت بصفاء لو أنها تعمى أيضاً، تخترق القشرة المرئية للأشياء وتلج عمقها. إلى عمائها المدوّخ غير القابل للشفاء.

فجأة، ومن خارج الجناح، ربما من الردهة الفاصلة بين الجناحين، وصلتها أصواتٌ غاضبةٌ. اخرجوا، اخرجوا، اغربوا من هنا، لا يمكنكم البقاء هنا، يجب أن تطيعوا الأوامر. تعالت الضجة ثم تخامدت ثانية، وانصفق باب، وكل ما أمكن سماعه الآن هو النحيب، وجلبة سقوط شخص ما، جلبة لا يمكن الخطأ فيها. أداروا رؤوسهم باتجاه المدخل، ما كانوا بحاجة لأن يبصروا كي يعرفوا أن هؤلاء عميان وصلوا الآن.

www.9ofy.com

نهضت زوجة الطبيب. كم كان سيسعدها لو تساعد القادمين الجدد، تواسيهم بكلمة، توصلهم إلى أسرّتهم، تقول لهم، انتبه هذا هو السرير السابع في الجهة اليسرى، هذا السرير الرابع في الجهة اليمنى، لا يمكنك أن تخطئه. نعم، نحن هنا ستة، جئنا أمس. نعم كنا الأوائل. أسماؤنا، ماذا تهمّ الأسماء، أعتقد أن أحد الرجال قد سرق سيارة، ثم هناك الرجل الذي سُرِق، وفتاة غامضة تلبس نظارة سوداء وتقطر في عينيها قطرة لالتهاب الملتحمة. كيف أعرف وأنا عمياء، أنها تلبس نظارة، حسن اتفق أن زوجي اختصاصي عيون، وكانت في عيادته أمس، ويوجد أيضاً الطفل الأحول. لم تتحرك من مكانها، وقالت لزوجها، إنهم يقتربون. نهض الطبيب من سريره، ساعدته زوجته في لبس سرواله، ليست مشكلة فلا أحد يستطيع أن يراها. في هذه اللحظة دخل المحتجزون إلى الغرفة، كانوا خمسة، ثلاثة رجال وامرأتين. قال الطبيب بصوت مسموع، اهدؤوا، لا داعي للعجلة، نحن هنا ستة، كم عددكم، هنا متسع للجميع. لا يعرفون عددهم، صحيح أنهم احتكوا بعضهم ببعض، وتعثروا أحياناً أحدهم بالآخر، وهم يتدافعون من الجناح الأيسر إلى الجناح الأيمن، لكنهم لم يعرفوا كم واحداً كانوا. ولم يكن بحوزتهم أمتعة. فعندما استيقظوا في جناحهم عمياناً بدؤوا النواح على مصيبتهم، فطردهم الآخرون بدون تمهل، حتى بدون أن يتيحوا لهم مجالاً لوداع أي أقرباء أو أصدقاء ربما كانوا معهم. علّقت زوجة الطبيب، من الأفضل لو يستطيعون العد وكلّ منهم يقدّم اسمه. تجمد المحتجزون، في أماكنهم متردّدين، لكن لا بد أن يبدأ أحدهم، فاتفق أن تكلم رجلان منهم في الوقت نفسه، وصمتا كلاهما، فبدأ الشخص الثالث، أنا الرقم واحد، وتوقف، بدا على وشك

تقديم اسمه، لكنه قال، أنا شرطي. فكرت زوجة الطبيب لنفسها، لم يقدّم اسمه، هو أيضا يعرف ألاّ أهمية للأسماء هنا. قدّم رجل آخر نفسه، أنا الرقم اثنان سائق تاكسي. قال الرجل الثالث، رقم ثلاثة، مساعد صيدلي. بعدئذٍ تكلمت امرأة، رقم أربعة، أنا عاملة فندق، وآخرهم، رقم خمسة، أنا موظفة. إنها زوجتي، زوجتي أين أنت، قولي أين أنت. هنا، أنا هنا، قالت وانفجرت في البكاء، وتقدمت بخطا مترنحة على طول الممر بين الأسرّة وعيناها مفتوحتان، يداها تجاهدان في البحر الحليبي الغارقتان فيه. تقدّم نحوها بثقة أكبر، وهو يتمتم كأنه يصلي، أين أنت، أين أنت. وجدت يدُ رفيقتها، وفي اللحظة التالية كانا متحاضنين، جسداً واحداً، قُبلاً تبحث عن قُبل، تضيع أحياناً في الهواء، لأنهما لم يستطيعا رؤية خدّي أحدهما الآخر، أو شفتيه. تعلقت الزوجة برقبة زوجها وراحت تنشج وكأنهما اجتمعا الآن. وكان بالإمكان سماع صوت الطفل الأحول يسأل، هل أمي موجودة أيضاً. جلست الفتاة ذات النظارة السوداء على سريره ودمدمت، ستأتي، لا تقلق ستأتي.

البيت الحقيقي للمرء هنا هو سريره. لذلك لا تستغربوا كثيراً أن ينصب اهتمام الواصلين الجدد على اختيار سرير، تماما كما فعلوا في الجناح الآخر، عندما كانوا لايزالون مبصرين. بالنسبة إلى زوجة الأعمى فمكانها الصحيح والطبيعي هو بجانب زوجها، في السرير السابع عشر، تاركة السرير الثامن عشر في الوسط فارغا يفصلهما عن الفتاة ذات النظارة السوداء. يوجد هنا العديد من الصلات، بعضها معروف، وبعضها سيُعرف لاحقا، فعلى سبيل المثال، إن مساعد الصيدلي هو الذي باع القطرة للفتاة ذات النظارة السوداء، وهذا سائق التاكسي الذي

أوصل الأعمى الأول إلى عيادة الطبيب، والشخص الذي قال إنه شرطي وجد اللص يبكي كطفل ضائع، وبالنسبة إلى عاملة الفندق فقد كانت أول من دخل الغرفة عندما أصيبت الفتاة ذات النظارة السوداء بنوبة صراخ. مع ذلك فمن المؤكد أنه لن تتضح وتُعرف كل الصلات، إما لانعدام الفرصة، وإمّا لأنه ما من أحد منهم تخيّل أنهم يمكن أن يجتمعوا هنا، وإمّا لأنها ببساطة مسألة احساس ولباقة. فلن تتخيل عاملة الفندق أبداً أن الفتاة التي رأتها عارية، موجودة هنا. ونعرف أن مساعد الصيدلي باع قطرات عينيه لزبن آخرين يلبسون نظارات سود، وما من أحد ستبلغ وقاحته حد أن يبلّغ الشرطي عن وجود شخص ما سرق سيارة. وسيقسم سائق التاكسي أنه لم ينقل بسيارته خلال الأيام الماضية رجلاً أعمى. طبيعي أن الأعمى الأول قد أخبر زوجته بصوت خفيض أن أحد المحتجزين هنا هو الوغد الذي هرب بسيارتهما. يا لها من مصادفة. آه، لكن في الوقت نفسه، بما أنه يعرف أن ساق الشيطان التعس قد تأذّت كثيراً، أضاف بشهامة، لقد نال جزاءً كافياً. وبسبب إحباطها الشديد من عماها وفرحتها باستعادة زوجها، فالفرح والأسى قد يجتمعان معاً، لا كما الماء والزيت، لم تعد تذكر ما قالته منذ يومين بأنها مستعدة أن تخسر سنة من عمرها، وهذه كلماتها حرفيا، مقابل أن يعمى هذا الوغد. وإن كان أدنى أثر من الامتعاض مازال يعتمل داخلها فقد تبخّر عندما أنَّ الرجل الجريح أنينا مثيراً للشفقة. دكتور، أرجوك ساعدني. سار الطبيب على هدى زوجته، تلمس حواف الجرح، لم يستطع أكثر من ذلك، وليس من فائدة تذكر في محاولة غسله من جديد، فربما نتج التجرثم عن احتمالين متكافئين، أوساخ من شوارع المدينة وأرضية

المكان هنا كانت عالقة بكعب الحذاء، الذي نفذ عميقا في ساقه، أو عن جراثيم يحتمل أنها موجودة في الماء الآسن الملوّث الذي يستجرّونه، في ظروف مرعبة، من أنابيب عتيقة. نهضت الفتاة ذات النظارة السوداء عندما سمعت أنينه، وتقدمت ببطء وهي تعدّ الأسرّة. انحنت إلى الأمام، مدت يدها التي لامست وجه زوجة الطبيب، بعدئذٍ، ومَنْ يعرف كيف، لمست يد الرجل الجريح الساخنة جداً، قالت بصوت خفيض، سامحني أرجوك، كانت غلطتي أنا، لم يكن ضروريا أن أفعل مافعلت. انسيها، رد الرجل، هذه أمور تحدث في الحياة، وما كان ينبغي لي أن أفعل ما فعلت أيضاً.

صدح مكبر الصوت عالياً بصوت خشن طغى تقريباً على كلماتها الأخيرة. انتباه، انتباه، وُضع طعامكم وكذلك مواد التنظيف والصحة العامة عند المدخل، ليتجه العميان أولاً إلى جلب طعامهم، وسنبلّغ حاملي العدوى متى يحين دورهم. انتباه، انتباه، وضع طعامكم عند المدخل، ليتجه العميان أولاً إلى المدخل، العميان أولاً. لم يفهم الرجل الجريح الذي دوّخته الحمى، كل الكلمات، فاعتقد أنهم يبلغونهم عن انتهاء احتجازهم، فحاول النهوض. لم تسمح له زوجة الطبيب بذلك. إلى أين تذهب. ألم تسمعي، سألها، قالوا إن على العميان أن يغادروا. نعم، لكن من أجل إحضار الطعام. تنهد الرجل الجريح قانطا، وشعر ثانية بالألم يخترق جسده. قال الطبيب، ابقي هنا، سأذهب. سآتي معك، قالت زوجته. كانا على وشك الخروج من الغرفة، عندما سأل رجل من الذين جاؤوا من الجناح الآخر، مَنْ هذا الشخص. إنه طبيب، أجابه الأعمى الأول، اختصاصي عيون. رائع، قال سائق التاكسي، من حظنا

www.9ofy.com

أن نجتمع مع طبيب لايستطيع مداواتنا. ونحن أيضاً التقينا مع سائق تاكسي لا يستطيع أن يأخذنا إلى أي مكان، قالت الفتاة ذات النظارة السوداء، ساخرةً.

كان صندوق الطعام في الردهة الرئيسية. طلب الطبيب من زوجته، خذيني إلى الباب الرئيسي. لماذا. سأخبرهم أن لدينا شخصا مصابا بالتهاب حاد وليس لدينا أدوية. تذكّر تحذيرهم. نعم، لكن ربما عندما نواجههم بحالة ملموسة. أشك في هذا. وأنا أيضا، لكن يجب أن نحاول. وقفا على المصطبة فوق الدرجات النازلة إلى الساحة الأمامية. بهر ضوء النهار زوجته، لا لأنه كان ساطعا، فالسماء تتخللها غيوم سوداء، وبدت كأنها ستمطر. أفي وقت قصير كهذا اعتادت عيناي الضوء الشحيح. في تلك اللحظة، صاح جندي من جهة البوابة. قفا، عودا، لدي أوامر بإطلاق النار، بعدئذ صوّب بندقية نحوهما وبالنبرة نفسها صاح، رقيب، هناك شخصان يحاولان الخروج. لا رغبة لدينا في الخروج صاح الطبيب محتجّاً. برأيي أنهما لا ينويان الخروج، قال الرقيب وهو يقترب لينظر عبر قضبان البوابة الرئيسية، وسأل، ما الأمر. يوجد هنا شخص تأذّت ساقه، والتهب جرحها، إننا بحاجة ماسة لمضادات حيوية وأدوية أخرى. إن الأومر لديّ واضحة جداً، لا يسمح لأحد بالخروج، والشيء الوحيد المسموح بإدخاله هو الطعام. إذا ساء وضع الجرح، ويبدو الأمر مؤكدا، فسوف يكون مميتا. هذا ليس من شأني. اتصل برؤسائك إذن. انظر أيها الأعمى، أقول لك إما أن تعودا من حيث أتيتما وإما أن أُطلق النار عليكما. لنعدْ، قالت زوجته، لا يسعنا فعل شيء، ولا يلامون، لأنهم خائفون وينفذون الأوامر. لا أستطيع أن أصدق

ما يحدث، إنه يخالف كل المعايير الإنسانية. الأفضل أن تصدقه، فالحقيقة لا يمكن أن تكون أوضح من أنها حقيقة. مازلتما هناك، سأعدّ حتى الثلاثة وإن لم يدخلا فليتأكدا أنهما لن يعودا إلى الداخل أبداً. واحد، اثنان، ثلاثة، جيد. كان عند كلمته. حتى لو كان أخي، وجّه كلامه للجنود إلا أنه لم يبيّن لهم مَنْ قصد بكلامه، ذلك الذي جاء يطلب الدواء، أم ذلك الآخر ذا الساق المتجرثمة. أراد الرجل الجريح في الداخل أن يعرف إذا ما كانوا سيعطونهم أدوية. كيف عرفت أني ذهبت لأطلب دواءً، سأله الطبيب، خمّنت أنك في نهاية المطاف، طبيب. آسف. هل تعني، آسف، أن لا دواء. نعم، تعني ذلك.

كان الطعام محسوباً بدقة ليكفي خمسة أشخاص، زجاجات حليب، بسكويت، غير أن من أعدّ لهم الطعام نسي أن يضع لهم كؤوسا، وأطباقا، أو سكاكين، ربما ستأتي مع الغداء. أعطت زوجة الطبيب بعض الحليب للجريح، لكنه تقيأه. تذمّر سائق التاكسي من الحليب فهو لا يحبه، وسأل إن كان بوسعه الحصول على بعض القهوة. عاد بعضهم إلى الأسرّة بعد الطعام، وحدهما الأعمى الأول وزوجته ذهبا لاستطلاع المكان. طلب مساعد الصيدلي أن يُسمح له بالتحدث إلى الطبيب. أراد أن يعرف إن كان الطبيب قد خلص إلى رأي حول مرضهم. لا أعتقد أن بوسعنا تسمية هذا مرضا، وشرع الطبيب يشرح له، وبكثير من التبسيط أوجز له ما بحث عنه في المراجع الطبية قبل أن يعمى. كان سائق التاكسي، الذي تفصله عنهما عدة أسرّة، يصغي باهتمام، وعندما أنهى الطبيب شرحه، علّق السائق بصوت عال، أراهن أن ما حدث هو أن القنوات التي تصل بين العينين والدماغ قد احتقنت. مجنون غبي، زمجر

مساعد الصيدلي بازدراء. مَنْ يعرف، قال الطبيب ولم يستطع أن يغالب ابتسامته، في الواقع ..إن العينين ليستا سوى عدستين، والعقل هو الذي يقوم بفعل الرؤية، تماماً كما تظهر الصورة على الفيلم، وإذا انسدّت القنوات كما افترض الرجل، فيحدث هنا كما يحدث في مكربن السيارة (الكاربرتور) الذي إن لم يصله الوقود لا يقلع المحرك ولا تسير السيارة. الأمر في غاية البساطة كما ترى، قال الطبيب لمساعد الصيدلي. وكم تعتقد سيطول احتجازنا هنا، دكتور، سألت عاملة الفندق. على أقل تقدير، سيحتجزوننا ما دمنا غير قادرين على أن نرى. وكم سيطول ذلك، بصراحة لا أعتقد أن أحداً يعرف، فإما أن يكون الاحتجاز مؤقتاً وإما أن يستمر إلى الأبد. كم أودُّ لو أعرف، تنهّدت العاملة وأضافت بعد برهة، أود لو أعرف أيضاً ما جرى لتلك الفتاة. أيّ فتاة، سأل مساعد الصيدلي. تلك التي كانت في الفندق، تسببت لي بصدمة كبيرة، عندما رأيتها وسط الغرفة عاريةً كما ولدتها أمها، إلا من نظارة سوداء، وتصرخ أنا عمياء، ربما هي التي عدتني. نظرت زوجة الطبيب فرأت الفتاة تخلع نظارتها ببطء وتضعها تحت الوسادة، وهي تسأل الطفل الأحول، أتريد بعض البسكويت. للمرة الأولى بعد وصولهم إلى هنا شعرت زوجة الطبيب كأنها تنظر عبر مجهر وتراقب سلوك عدد من الكائنات البشرية لا يشكّون بوجودها، صدمها هذا الشعور بكونها وضيعةً وقذرةً. فكرت لنفسها، لا حق لي في أن أنظر مادام الآخرون عاجزين عن رؤيتي. قطرت الفتاة بيدٍ مرتجفة عدّة قطرات في عينيها. وهذه تتيح لها الادّعاء بأن ما يجري من عينيها ليس دموعاً.

أخبرهم مكبر الصوت بعد عدة ساعات، بأن عليهم التحرك لإحضار

غدائهم، فتطوّع الأعمى الأول وسائق التاكسي للقيام بهذه المهمة التي لا تحتاج بالضرورة إلى بصرٍ مادامت قادرين على التلمّس بأيديهما. كانت صناديق الطعام بعيدة قليلاً عن الباب الذي يصل بين الردهة الأساسية والممرات، فاضطرا إلى الزحف على أربعٍ كانسين الأرضية كي يصلا إلى الصناديق، مادين في الهواء يداً مستخدمين الثانية كمخلب ثالث. وإن كانا لم يجدا صعوبة في العودة إلى الجناح فمردُّ ذلك إلى فكرة زوجة الطبيب، فكرة جاهدت لإقناعهم أنها اكتسبتها بخبرتها الشخصية، بأن يصنعوا حبلاً من بطانية يربطون إحدى نهايتيه بمسكة باب الغرفة والأخرى بكاحل أي شخص يذهب إلى إحضار الطعام. ذهب الرجلان، ووجدا هذه المرّة أطباقا وسكاكين، إلا أن كمية الطعام مازالت لخمسة فقط. والاحتمال الأرجح هو أن الرقيب الذي يوزع الطعام على الجناحين، لم يعرف أنهم زادوا ستة أشخاص، لأن الموجودين في الخارج حتى إن اهتموا بما يجري في الداخل فإن المصادفة وحدها ستمكن أياً منهم من أن يعرف من خلال الظلال التي تتحرك في الردهة، بانتقال أحد ما من جناح إلى آخر. تطوّع سائق التاكسي أن يذهب ويطالب بحصص الطعام الناقصة، ذهب بمفرده، فلم يرغب برفقة أحد. نحن لسنا خمسة فقط، إننا أحد عشر شخصا، نادى على الجنود. فانبرى له الرقيب نفسه من الجهة الأخرى قائلاً، اخرس سيأتي المزيد فيما بعد. وإذا صدقنا ما قاله سائق التاكسي عندما عاد، فقد بدت له نبرة الرقيب ساخرةً، وقال لهم بدا لي أنه يسخرمنّي. تقاسموا الطعام، قسّموا حصة خمسة على عشرة، إذ أن الرجل الجريح مازال يرفض تناول الطعام ولم يطالب إلا بقليل من الماء، ورجاهم أن يرطبوا له شفتيه. كانت درجة حرارته مرتفعة جداً. وبما أنه

www.9ofy.com

غير قادر على احتمال احتكاك البطانية وثقلها فوق جرحه لفترة طويلة، راح يكشف ساقه من حين لآخر، غير أن الهواء البارد في الغرفة سرعان ما يجبره على تغطيتها ثانيةً، ودامت هذه الحال عدّة ساعات. وفي فترات متعاقبة منتظمة يُسمع أنينه الذي بدا كلهاث مكتوم، كأن الألم الدائم المطّرد قد ازداد وطأة قبل أن يستطيع السيطرة عليه.

وصل ثلاثة عميان جدد عصر ذلك اليوم. كان أحدهم موظف الاستقبال في العيادة، فعرفته زوجة الطبيب فوراً، والآخران كما حكم القدر، الرجل الذي كان يضاجع الفتاة في الفندق وذلك الشرطي الوقح الذي أوصلها إلى البيت. وما أن وصلوا واستقروا على أسرّتهم حتى انخرط موظف الاستقبال في بكاء يائس. لم يقل الآخران شيئا، وكأنهما لايزالان عاجزين عن فهم ما جرى. فجأة وصلهم صراخ ناس من الشارع، أوامر تعطى بصوت عال، وهدير أناس محتجّين. أدار المحتجزون رؤوسهم ناحية الباب وانتظروا. لم يستطيعوا أن يروا إلا أنهم عرفوا ماذا سيحدث خلال بضع دقائق. جلست زوجة الطبيب على السرير قرب زوجها وقالت بصوت خفيض، لابد أن الجحيم الموعود على وشك أن يبدأ. شدّ على يدها ودمدم، لا تتحركي فمن الآن فصاعدا لا يمكنك أن تفعلي شيئا. تلاشى الصراخ، وسمعت الآن جلبة أصوات قادمة من ناحية الردهة، إنهم العميان.. وهم هائمون كالخراف، يتعثر أحدهم بالآخر. انحشروا داخل الأبواب، فقد بعضهم الإحساس بالاتجاه فضلّوا إلى غرف أخرى، غير أن معظمهم تابعوا متعثرين، متجمعين في مجموعات أو مشتتين واحداً إثر الآخر، يلوحون يائسين بأيديهم في الهواء وكأنهم يغرقون، واندفعوا إلى داخل الغرفة كريح عاصفة، كأن بلدوزراً قد دفعهم

من الخارج. سقط بعضهم أرضا وداسته أقدام. بدأ الواصلون الجدد، بعد أن انحشروا في الممر الضيق، يملؤون الفراغات بين الأسرّة، وهنا كسفينة علقت في العاصفة غير أنها استطاعت أخيرا أن تصل الميناء، استقروا في مراسيهم، أسرّتهم، مصرّين على ألاّ أماكن إضافية وأن على القادمين الجدد أن يبحثوا عن أماكن في غرف أخرى، غير أن القلة القليلة التي بقيت بدون أسرّة خافت أن تضيع في متاهة الغرف، الممرات، الأبواب المغلقة، والأدراج التي قد يعون وقوعهم فيها بعد فوات الأوان. في نهاية المطاف أدركوا أنهم لا يستطيعون البقاء هناك، هكذا راحوا يجاهدون لبلوغ الباب الذي دخلوا منه. غامروا في السير إلى المجهول. وكأنهم يبحثون عن الملاذ الآمن الأخير، تدبّر المحتجزون الخمسة في المجموعة الثانية الوصول إلى الأسرّة الفارغة التي كانت تفصل بينهم وبين المجموعة الأولى. وحده الرجل الجريح بقي معزولا بدون حماية، على السرير الرابع عشر في الجهة اليسرى.

بصرف النظر عن البكاء والعويل، فبعد ربع ساعة من وصولهم ورسوّهم فوق الأسرّة واستعادة هدوئهم العقلي إلى حدّ ما، هدأت أصواتهم المكتومة. كانت الأسرّة كلّها مشغولةً. والمساء يتوغل في الغرفة، فبدت الأضواء الشاحبة تستعيد القوة. بعدئذٍ صدح مكبر الصوت مكرراً التعليمات ذاتها، كما في اليوم الأول، بخصوص حفاظ المحتجزين على الجناحين، وكذلك ضرورة انقيادهم للتعليمات، أسف الحكومة لأنها فرضت بالقوة ما تعده حقا وواجبا، لتحمي الشعب بكل الوسائل المتاحة خلال الأزمة الراهنة. الخ، الخ.. عندما توقف الصوت تعالى كورس أصوات ساخطة محتجّة، لقد حبسنا هنا. سنموت هنا. هذا

ظلمٌ. أين الأطباء الذين وعدنا بهم. هذا شيء جديد، فقد وعدت الحكومة بأطباء، مساعدات طبية، وربما بشفاء تام. لم يعلن الطبيب أنه مستعد لتقديم خدماته إذا ما احتاجوا إلى مساعدة طبية. ولن يعلن ذلك ثانية. فيداه وحدهما لا تكفيان. فالطبيب يعالج بالأدوية، بالعقاقير، بالمركبات الكيماوية وبمزيج من هذا وذاك، ولا يوجد هنا أدنى أثر من مواد كهذه، ولا أمل لهم في الحصول عليها. حتى أنه يفتقد البصر كي يستطيع أن يرى أي شحوب مرضي، فرط التروية المحيطية، تلوّن المخاط والخضاب، فكثيراً ما تكون هذه العلائم، بدون الحاجة إلى فحص أدق، مفيدة باعتبارها تشخيصاً سريرياً في تاريخ المرض، ويمكن إلى حد بعيد أن نستنتج منها التشخيص الصحيح. لا يمكن تجاهل هذا. وبما أن كل الأسرّة من حولهما أصبحت مشغولة، لم تعد زوجة الطبيب قادرةً على إخباره بما يجري، غير أنه شعر بجوّ التوتر والضيق يتسع على صراع مفتوح، وهذا من صنع مجموعة المحتجزين الجديدة. بدا أن هواء الغرفة نفسها أصبح أثقل، يطلق روائح قوية متباطئة، وعصفات مفاجئة أقل ما توصف به أنها تثير الغثيان. كيف سيصبح هذا المكان خلال أسبوع، سأل نفسه وأرعبه التفكير في أنهم سيبقون محتجزين هنا لمدة أسبوع، مفترضا أنهم لن يواجهوا مشكلات في الطعام المقدم لهم، ومَنْ يستطيع أن يجزم في أن النقص ليس قائما الآن، فأنا أشك، مثلاً، إذا ما كان لدى هؤلاء في الخارج أي فكرة كم أصبح عدد المحتجزين هنا بين لحظة وأخرى، والسؤال هنا هو كيف سيحلون مشكلة الصحة العامة، ولا أقصد هنا كيف نحافظ على نظافتنا الشخصية، لأننا عمينا منذ أيام ولا أحد يساعدنا، أوإذا ما كانت الحمامات صالحة وإلى متى، بل أشير

إلى الأمور الأخرى، كل المشكلات الأخرى المحتملة، إذا ما انسدت المراحيض، أو واحدٌ منها، فسيتحوّل هذا المكان إلى مجرور. فرك وجهه بيديه، شعر بخشونة ذقنه بعد ثلاثة أيام بدون حلاقة، إنها أفضل هكذا، آمل ألا تخطر لهم فكرة إرسال أمواس حلاقة أو مقصات. ففي حقيبته توجدكل الأدوات اللازمة للحلاقة، لكنه يعي محاولة أن ذلك ستكون خطأ، وأين، ليس هنا في الغرفة وسط كل هؤلاء الناس، صحيح أن بوسع زوجتي أن تحلق لي، بيد أن الآخرين سيعرفون بالأمر بسرعة ويستغربون وجود شخص مبصرٍ هنا، قادر على تقديم هذه الخدمات. وهناك في الداخل، في «الدوش»، سيرتبكون كثيرا، يا إلهي، كيف فقدنا بصرنا، فقدنا قدرتنا على الرؤية، حتى إن كانوا مجرّد أخيلة، يقفون أمام المرآة، يرون بقعة سوداء تتخللها فيقولون، هذا وجهي، فأيّ شيء مضيء. لا ينتمي إليَّ إذن.

خمدت التذمرات شيئاً فشيئاً، جاء أحد نزلاء الغرف الأخرى يستفسر إذا ما كان لديهم بقايا طعام، فأسرع سائق التاكسي بالرّد عليه، ولا حتى كسرة. أراد مساعد الصيدلي أن يستعرض إرادته الطيبة، أن يلطف حدّة الرفض، فأضاف، ربما سيصل المزيد من الطعام. غير أن لاشيء سيصلهم. هبط الظلام ولم يأت من الخارج لا طعام ولا كلام. سُمع بكاء من الغرفة المجاورة، بعدئذٍ خيم صمت، فإن كان أحد يبكي فإنه يذرف الآن دموعه بصمت، إذ لم يخترق البكاء الجدران. ذهبت زوجة الطبيب لتطمئن على الجريح. هذه أنا، قالت له، وهي ترفع البطانية بحرص. كان منظر ساقه مرعبا، لقد انتفخت تماماً من الفخذ حتى القدم، وأصبح الجرح بقعة سوداء تتخللها بثور حمراء بنفسجية وقد

www.9ofy.com

اتسعت رقعته، وكأن اللحم قد اتسع من الداخل. كانت تنبعث منه رائحة نتنة كريهة وحلوة قليلاً. كيف تشعر، سألته زوجة الطبيب. شكراً لمجيئك. قل لي كيف تشعر. سيّئ. تتألم. نعم ولا، ماذا تقصد. إنها تؤلمني لكن كأنها لم تعد ساقي، كأنها انفصلت عن جسدي، لا أستطيع أن أشرح لك، إنه شعور غريب، وكأنني أجلس هنا أراقب ساقي تؤلمني. هذا لأنك محموم. ربما. حاول أن تنام. وضعت يدها على جبينه، بعدئذٍ همّت بالانسحاب، غير أنه وقبل أن تتمنى له ليلة سعيدة، أمسك بذراعها وقرّبها إليه مرغماً إياها أن تدني وجهها من وجهه. أعرف أنك تستطيعين أن تري، قال بصوت خفيض. أنت مخطئ، ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك، إن كنت أرى فإني أرى مثل أي شخص هنا. لا تحاولي خداعي، لن أنبس بكلمة واحدة لأي مخلوق. نَمْ، نَمْ. ألا تثقين فيَّ. بالطبع أثق. ألا تثقين بوعد لص. قلت لك إني أثق فيك. لِمَ لا تخبرينني بالحقيقة إذاً. سنتكلم في الأمر غداً، نم الآن. نعم غداً، إن عشت حتى الغد. يجب ألا تفكّر في الأسوأ. أنا أفكر، أو ربما هي الحمى تفكّر عني. عادت وانضمت إلى زوجها وأخبرته همساً في أذنه، يبدو الجرح سيئاً جداً، أيمكن أن تكون الغرغرينا. من غير المرجح في هذه الفترة القصيرة. أياً تكن فإن حالته سيئة. قال الطبيب بصوت تعمده عالياً، ونحن نحتجز هنا في خم وكأن العمى ليس كافياً، وقد يوثقون أيدينا وأرجلنا أيضاً. من السرير الرابع عشر في الجهة اليمنى رد المريض، إن أحداً لن يوثقني، دكتور. مرت الساعات تباعاً، وغط المحتجزون العميان في نوم عميق. غطى البعض رؤوسهم بالبطانيات، وكأنهم يتلهفون إلى رؤية بقعة سوداء مظلمة، ظلمة حقيقية، قد تطفئ

مرّة واحدة وإلى الأبد تلك الشموس الشاحبةالتي سكنت أعينهم. تتدلى ثلاثة مصابيح من السقف العالي، لا تطولها الأيدي، تنشر فوق الأسرّة ضوءاً شاحباً مصفراً، عاجزاً حتى عن خلق ظلال. كان الأشخاص الأربعون نائمين أو يحاولون ، دون جدوى أن يناموا، بعضهم يتنهد ويدمدم في أحلامه، ربما يستطيعون في أحلامهم أن يروا ما يحلمون به، ربما يقولون لأنفسهم، إن كان هذا حلما، فلا أريد أن أستيقظ منه. كل الساعات في معاصمهم قد توقفت، إما لأنهم نسوا أن يعبئوها وإما لأنهم قرروا أنها عديمة الفائدة، فقط ساعة يد زوجة الطبيب لاتزال تعمل. الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا. على مبعدة منها، نهض اللص على مرفقيه ببطء وجلس في سريره. لم يكن يشعر بساقه، لا شيء سوى الألم، وكفّ ما سواه عن الانتماء إلى جسده. كانت ركبتاه متيبستين، استدار بجسده على جانب الساق السليمة التي تركها تتدلى عن حافة السرير، بعدئذٍ حمل فخذه المجروحة بكلتا يديه محاولاً تحريك ساقه المصابة إلى الاتجاه نفسه، وكقطيع ذئاب اهتاجت فجأةً انتشر الألم في جميع أنحاء جسده، قبل أن يرتد عائداً إلى الفوهة السوداء التي انطلق منها. سحب جسده ببطء، مرتكزاً على يديه، فوق السرير نحو الممر. عندما وصل الدرابزون السفلي للسرير اضطر أن يستريح قليلاً. فقد كان يلهث وكأنه مصاب بالربو، ورأسه يتأرجح فوق كتفيه، بالكاد يستطيع أن يرفعه. بعد عدة دقائق أصبح تنفسه أكثر انتظاما فنهض ببطء على قدميه، ملقياً ثقله على ساقه السليمة، إذ أنه كان يعرف أن الساق الأخرى غير ذات فائدة له وعليه أن يجرها خلفه جراً أينما ذهب. شعر فجأة بالدوخة، برجفة يتعذّر كبحها تسري في جسده، أسنانه تصطك

بفعل البرد والحمى. تقدم ببطء بين صفّي الأجساد النائمة، مستنداً إلى الاطارات المعدنية للأسرّة، متنقلاً من واحدٍ إلى الآخر وكأنه يسير على طول سلسلة معدنية. جرّ ساقه كالحقيبة خلفه. لم يره أحد، لم يسأله أحد أين تذهب في هذه الساعة، ولو سأله أي شخص، فجوابه جاهز، ذاهب لأتبوّل. لم يرغب أن تناديه زوجة الطبيب، فهي الشخصُ الوحيدُ الذي لا يستطيع أن يخدعها أو يكذب عليها، وسيضطر أن يخبرها بمَا في رأسه. لا أستطيع أن أستمر في التعفّن داخل هذا الجحر، لقد عرفت أن زوجك فعل كل ما بوسعه لمساعدتي، غير أني عندما أضطر لسرقة سيارة أسرقها بنفسي ولا أطلب من أحد أن يسرقها لي، وهذه الحالة تشبه تلك، فأنا مَنْ يجب أن يذهب إليهم، فعندما يرونني على هذه الحالة سيدركون أن وضعي سيىء، عندئذٍ يضعونني في سيارة اسعاف ويأخذونني إلى المشفى. لابد من وجود مشفى خاص بالعميان، وأعمى إضافي لن يسبب لهم مشكلة، سيعالجون جرحي، يشفونني، فقد سمعت أن ذلك ما يفعلونه مع المحكومين بالإعدام إذا ما التهبت لديهم الزائدة الدودية يستأصلونها لهم جراحياً أولاً ثم يعدمونهم بعد ذلك، وبهذا يموتون معافين، وفي حالتي يستطيعون إعادتي إلى هنا إن أرادوا، ولن أمانع. تقدّم إلى الأمام وهو يكزّ على أسنانه، ليخمد أيُّ أنين، إلا أنه لم يستطع أن يقاوم نشيجاً مؤلماً عندما فقد توازنه حين بلغ نهاية صف الأسرّة، فقد أخطأ في عدّها، إذْ اعتقد أنه لايزال أمامه سرير، إلا أنه وصل فراغاً. بقي ساكنا فوق البلاط حتى تأكد أن أحدا لم يستيقظ من جلبة سقوطه. بعدئذٍ لاحظ أن وضعيته الحالية مثالية بالنسبة إلى رجل أعمى، فالسير على أربع أكثر سهولة في حالته هذه. جرّ نفسه حتى

وصل إلى الردهة، توقف قليلاً ليفكر كيف سيتقدم، إن كان من الأفضل أن يكلم الجنود من الباب، أو أن يخرج إلى البوابة، مستفيداً من الحبل الذي يستخدم كدرابزين ولايزال في مكانه على الأغلب أدرك بعمق أنه إن صاح من عند الباب طالبا مساعدته فسوف يأمرونه بالعودة إلى الداخل، غير أن الخيار الوحيد أمامه هو الحبل المتأرجح، وبعد معاناته السابقة في عدم قدرته على الاستفادة من أطر الأسرّة، جعله يتردّد قليلاً. بعد عدة دقائق اعتقد أنه وجد الحل. سأزحف على أربع، وسأحاول أن أبقى تحت الحبل، ومن حين لآخر أرفع يدي لأتأكد أني مازلت في الاتجاه الصحيح، وهذا يشبه سرقة سيارة، فبالامكان دائماً إيجاد الطرق والوسائل المناسبة. استيقظ ضميره فجأة، وأدهشه ذلك، ووبخه بقسوة لأنه سرق سيارة أعمى سيىء الحظ. في الواقع أنا هنا، هكذا فكّر لنفسه، ليس لأني سرقت سيارته، إنما لأني رافقته إلى بيته، تلك كانت غلطتي الكبيرة. لم يكن ضميره في حالة تؤهله لخوض نقاشات في الأسباب، كانت أسبابه بسيطة وواضحة. الأعمى إنسان مقدّس فلا تسرق أعمى. أنا لم أسرقه، بالمعنى المهني للكلمة، فهو لم يكن يحمل السيارة في جيبه، ولم أشهر عليه بندقية، احتج المتّهم في دفاعه. كُفَّ عَن هذه السفسطة وامض في طريقك، غمغم ضميره.

لسع وجهه هواء الفجر البارد. فكّر، كم يتنفس المرء هواءً منعشاً في الخارج هنا. تشكّل لديه انطباع أن ألم ساقه قد خفَّ، غير أن هذا لم يفاجئه، إذ حدث هذا سابقاً، وأكثر من مرة، فقدحدث الشيء نفسه أحياناً. كان الآن خارج الباب الرئيسي، وسرعان ما سيصل الدرجات الست. وهذه أصعب مرحلة في مشواره، فكّر أن عليه، نزول الدرجات

www.9ofy.com

أولاً. رفع ذراعه ليتأكد من وجود الحبل، وتابع. حدث ما تنبأ به، فلم يكن سهلاً عليه الهبوط من درجة إلى أخرى، لاسيما بسبب ساقه التي لا تساعده على ذلك، وجاء البرهان سريعا. ففي منتصف الدرجات انزلقت إحدى يديه فمال جسده إلى جهة وانزلق بفعل الثقل الكبير لساقه. عاوده الألم فوراً، وكأن أحدا ما كان ينشر، يثقب، ويدق جرحه، حتى إنه كان عاجزاً عن شرح كيف منع نفسه من الصراخ. بقي، عدة دقائق طويلة، منبطحاً، ووجهه على التراب. هبّت عصفة ريح على وجه الأرض جعلته يرتجف. لم يكن يرتدي إلا قميصا وسروالا داخلياً. كان جرحه ملامساً للتراب، ففكر أنه ربما سيتجرثم، تفكير أحمق، لقد نسي أنه كان يجر ساقه على الأرض منذ أن غادر الغرفة. حسن، ليست مشكلة، سيعالجونه قبل أن يتجرثم. فكر بعد ذلك في أن يريح ذهنه، انقلب على جنبه ليصل الحبل بسهولة أكبر. لم يجد طريقة الصحيح. نسي أنه قد أصبح، بعد أن تدحرج من على الدرجات، في الاتجاه المتعامد مع الحبل، إلا أن غريزته أخبرته أن يجب أن يبقى مكانه، بعدئذٍ قاده تفكيره عندما تحرك وهو في وضعية الجلوس إلى الوراء ببطء حتى لامست عجيزته الدرجة الأولى، وبشعور عام بالنصر أمسك الحبل الخشن بيده المرفوعة عالياً. ربما هو الشعور نفسه الذي قاده ومباشرة على الأغلب إلى اكتشاف طريقة في التحرك بدون أن يحتك جرحه مع الأرض. فأدار ظهره إلى البوابة الرئيسية وهو في وضعية الجلوس واستخدم ذراعيه كعكازين كما يفعل المشلولون، وراح يريح جسده في وضعية الجلوس في محطات متقاربة. إلى الوراء، نعم، لأنه في هذه الحالة، كما في الحالات الأخرى، كان السحب أهون من الدفع وألم ساقه

أقل. إضافة إلى أن انحدار الساحة الطفيف باتجاه البوابة كان في صالحه، أما بالنسبة إلى الحبل فلا خوف من الانحراف عنه، إذ أنه كان يلامسه برأسه. تساءل إن تبقت مسافةٌ طويلةٌ حتى يصل إلى البوابة، سيقطعها على قدم واحدة والأفضل على قدمين فذلك يختلف عن التقدم إلى الخلف بمقدار راحة اليد في كل مرّة. نسي ،لحظةً أنه أعمى، فأدار رأسه إلى الخلف وكأنه يريد التأكد من المسافة المتبقية فوجد نفسه في مواجهة البياض الكتيم نفسه. تساءل إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً، حسن لو كان نهاراً لشاهدوني فوراً، بيد أنهم لم يجلبوا لنا سوى الفطور ومنذ بضع ساعات فقط. تفاجأ باكتشافه سرعة ودقة محاكمته ومقدار منطقيّته، رأت نفسه في ضوء مختلف، رجلاً جديداً، ولولا هذه الساق الملعونة لأقسم إنه لم يشعر بشعور كهذا طول حياته. اصطدم ظهره المحني بصفحة معدنية في أسفل البوابة. لقد وصل. ربض داخل المحرس اتقاءً للبرد. اعتقد الحارس المناوب أنه قد سمع جلبة طفيفة لم يَستطع تحديدها، لم يفكر ، على أي حال، أنها قد تكون من الداخل، لابد أنها من حفيف أشجار مفاجئ، حركت الريح غصنا فاحتك مع الدرابزون. سمع جلبة أخرى، مختلفة هذه المرّة، خبطة، صوت تحطم أكثر وضوحا وهذا لا يمكن أن يصدر عن الريح. خرج الحارس من المحرس منرفزاً، أصبعه على زناد بندقيته الآلية، ونظر صوب بوابة المبنى. لم يستطع أن يرى شيئاً. عادت الجلبة ثانيةً، أعلى هذه المرة، وكأن شخصا ما يخرش بأصابعه على سطح خشن، على لوح البوابة المعدني. كان على وشك الذهاب إلى الخيمة الميدانية التي ينام فيها الرقيب، غير أنه توقف عندما فكّر أنه لو أيقظه على تخديرٍ كاذب فسوف يوبخه، لا يحب

الرقباء أن يوقظهم أحد إن كانوا نائمين، حتى لو وُجِدَ سبب وجيه. عاد ونظر صوب بوابة المبنى وانتظر متوتراً. ثم ببطء شديد بدأ يظهر له من بين القضبان المعدنية المتصالبة، وجه أبيض شبحي.. وجه رجلٍ أعمى. تجمّد دم الجندي في عروقه، بسبب الخوف، الخوف الذي دفعه إلى أن يسدّد بندقيته ويطلق النار عن قرب.

خرج الجنود مَنْ خيامهم نصف عراةٍ، على صوت إطلاق النار. جنود حراسة مشفى الأمراض العقلية ومن فيه. حضر الرقيب فوراً. ما الذي يجري هنا. رجل أعمى، رجل أعمى، تأتأ الجندي. أين. كان هناك وأشار إلى البوابة المعدنية بأخمص بندقيته. لا أرى شيئاً. كان هناك، لقد رأيته. أنهى الجنود لبس ثيابهم وانتظموا في رتل، وبندقياتهم جاهزة. أشْعِل الضوء الكاشف، أمر الرقيب. صعد أحد الجنود إلى رفراف السيارة، وبعد ثوان أضاءت الحزم الباهرة بوابة المبنى وواجهته. لا أحد هناك، أيها الأحمق، قال الرقيب، وكان على وشك أن يوبخه بعبارات منتقاة عندما رأى في اللحظة نفسها، في ذلك الضوء الباهر، بركةَ دمٍ تنسرب من تحت الباب لقد قتلته، قال الرقيب، ثم صاح بهم، متذكّراً الأوامر التي تلقّوها، ارجعوا إلى الوراء، هذا معدٍ. تراجع الجنود مرعوبين، لكنهم استمروا في الفرجة على بركة الدم التي كانت تتوزع في الفراغات بين الحصى الصغيرة في الدرب. أتعتقده قد مات، سأل الرقيب. لابد أنه مات، أصبته في وجهه، ردّ الجندي، وقد انشرح صدره الآن لدقّة تصويبه. في تلك اللحظة صاح جندي آخر خائفاً، رقيب، رقيب، انظر هناك. كان هناك عددٌ من المحتجزين العميان واقفين تحت نور الضوء الكاشف. كانوا أكثر من عشرة. قفوا في أماكنكم. صاح

الرقيب، حركة ثانية وأطلق عليكم النار. من نوافذ الأبنية المقابلة أطلّ عددٌ من الناس، أيقظهم صوت إطلاق النار، ينظرون برعب إلى ما يجري. بعدئذٍ صاح الرقيب ليتقدم أربعة منكم لأخذ الجثة. لأنهم غير قادرين على الرؤية ولا العدّ، تقدّم ستة عميان. قلت لكم أربعة فقط، صاح الرقيب صيحةً هيستيريةً. لمس المحتجزون العميان بعضهم بعضاً، ثم أعادوا الكرّة، تراجع اثنان منهم. أمسك الآخرون بالحبل، وتقدموا إلى الأمام.

www.9ofy.com

يجب أن نرى إذا ما كان يوجد هنا، رفش أو مجرفة أو أيّ شيء يمكن الحفر بوساطته، قال الطبيب. كان الوقت صباحاً، وبصعوبةٍ بالغة نجحوا في نقل الجثة إلى الساحة الداخلية. سجوها وسط نثار أغصان وأوراق الأشجار. يجب أن يواروه الثرى الآن. وحدها زوجة الطبيب عرفت حالة جثة الرجل المخيفة، فقد تهشّم وجهه وجمجمته بفعل الطلقات التي خلّفت أيضاً ثلاثة ثقوب في الرقبة وعظم القص. وهي تعرف أيضاً أنه لا يوجد في المبنى كله أي شيء يمكن حفر القبر بوساطته. لقد فتشت كل أرجاء الجناح المحتجزين فيه ولم تعثر سوى على قضيب معدني، قد يفيد لكنه لا يفي بالغرض. وعبر النوافذ، المنخفضة في هذه الجهة، المغلقة التي تمتد على طول الممر الفاصل بين جناح العميان وجناح أولئك المشكوك في حملهم العدوى، رأت وجوههم الهلعة وهم ينتظرون دورهم، اللحظة المحتومة عندما سيقول أحدهم للآخرين، أنا أعمى، أو حتى إن حاولوا إخفاء عماهم فسوف تخونهم